

روايات عالمية للجيب 68

Looloo

www.dvd4arab.com

نداء كُولُو



تأليف : هـ . ب . لافكرافت
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

المؤلف



هذا هو لقائنا الثانى - ربما
الثالث - مع هوارد فيليب
لافكرافت Lovecraft ، الذى
صرنا نعرفه جيداً .. هناك
معلومات لا بأس بها عنه فى
الكتيبين 36 و 37 من هذه
السلسلة ، لكننا نعيدها هنا
للتذكرة .

ولد الرجل فى 10 أغسطس عام 1890 ، فى (بروفيدنس)
بـ (رود آيلاند) .. فى هذا المكان تدور أحداث معظم رواياته
المخيفة . عاش تجربة قاسية مع مرض غامض أصاب أباه
جعله فى غيبوبة لفترة طويلة جداً .. على الأرجح كان المرض
هو زهرى الجهاز العصبى .

بدا نبوغ لغوى مبكر جداً على الصبى الذى تعلم القراءة فى
سن الثالثة وكتب فى سن الخامسة . بالطبع تركت قصص ألف
ليلة وليلة أثراً لا يمحو لديه ككل كاتب غربى آخر فى الواقع .
فى هذه الفترة أطلق على نفسه (عبد الله الحظرد) وهو الاسم
الذى استعمله فيما بعد ليكون صاحب كتاب (العزيف) المخيف

فائق الشهرة . بعد هذا اكتشاف الأساطير الإغريقية وبصفة خاصة الإلياذة والأوديسة . كان ميالاً للوحدة والانطواء ، وعانى أمراضاً نفسية كثيرة ..

عام 1914 صار رئيس رابطة الأبناء الشبان وكتب أولى قصصه (الوحش فى الكهف) . كان أصدقاؤه يحبونه ويقولون إنه كان رقيقاً لطيفاً برغم السمعة التى تلاحقه عن كونه يمقت البشر . هناك شاب فى قصة (كتولو) يصفه لافكرافت قائلاً :

« شاب أسمر نحيل بادهى العصبية والقلق ... كان الفتى شديد الذكاء لكنه غريب الأطوار بسبب اهتمامه بدراسة الظواهر الغريبة وكان يعتبر نفسه (شديد الحساسية نحو الخوارق) . ولما كان منطوياً صار خفياً بالنسبة لمجتمعنا ، فلم يعد يعرفه سوى عدد قليل من الناس » .

الحقيقة أن بعض النقاد يعتبرون هذا الفتى لافكرافت كما يرى نفسه .

كتب الكثير جداً من القصص والكثير من الشعر ، كما أنه ترك تراثاً هائلاً من الخطابات والمقالات . توفي الرجل فقيراً عام 1937 شاعراً بأن حياته كانت فاشلة ، غير عالم أنه سيصير توعماً فى الشهرة لمواطنه العظيم (إدجار آلان بو) ، وهو ما يثير أسئلة عديدة عن تركنا لهؤلاء العباقرة يتعذبون فى حياتهم ، ثم تخليدهم وكتابة المجلدات عنهم بعد موتهم .

ترك لافكرافت تراثاً خيالياً هائلاً يضم أسماء مثل (العزيف) و (نيكرونوميكون) و (كتولو) و (آر خام) .. وهى أسماء صارت شهيرة جداً لدرجة أنه كان يستعملها بين قصة وأخرى ، واستعملها كتاب آخرون فى قصصهم . وهناك كتاب مثل (برايان لوملى) تأثروا جداً بهذه العوالم وكتبوا مثلها بالضبط .. عامة هو متأثر بفكرة الكيانات القديمة Old Ones التى كانت تحكم الكون قديماً ثم نامت أو نسيت ، والتى نقابلها كثيراً فى كتابات (دى) و (كراولى) الساحرين الشهيرين . هناك تيمات ملحة فى كتاباته مثل الشخصيات الحساسة غريبة الأطوار التى تعيش منفردة وتتصل بسر مخيف غامض ، ينكشف لراوى القصة فيجن أو يهرب ويقضى حياته مذعوراً . هناك الأسماء التى تحمل طابع (نيو إنجلند) - مسقط رأسه - والتى يحب أن يستخدمها فى عناوين القصص مثل (وصية راندولف كارتر) و (حالة تشارلز دكستر وارد) و (ظل فوق إينزماوث) و (ريتشارد بيكمان) و (آرثر جيرمين) ... إلخ ..

اليوم نلتقى مع مجموعة من قصص لافكرافت القصيرة التى تحمل إحداها عنوان (نداء كتولو) .. هذه قصة شهيرة جداً كتبها عام 1926 ونشرت فى مجلة (حكايات غريبة) عام 1928 .

يعرف عشاق لافكرافت أن كتولو كائن يتكرر بإلحاح في أدب الرجل . ويرى بعض النقاد الغربيين أن الكائن مستوحى من شخصية (الكراكين) الوحش النائم في حفرة في أعماق المحيط في قصيدة لـ (تنيسون Tennyson) . إنه الوحش الأخطبوطي المكلف بالتهام الحسناء أندروميذا والتي سينقذها (برسيوس) في آخر لحظة بالاستعانة برأس ميدوسا . لو أفاق كتولو فلن يعود هناك عالم نعيش فيه . اعتقادي الشخصي هو أن لافكرافت كان يؤمن بوجود كتولو والكيانات القديمة فعلاً .. اهتمامه يتجاوز الولع الأدبي إلى ما يشبه الافتتان الديني بالفكرة .

من جديد يترك لافكرافت بصماته في كل مكان : مثلاً نجد في قصة (كتولو) مفتش شرطة اسمه (ليجراس) .. يستعير كاتب الرعب (هندرسون) هذا المفتش في مجموعة قصص خاصة به تحمل عنوان (حكايات المفتش ليجراس) ، كما يستعيره (مارك إليس) في قصته المصورة (الهامس في الظلام) .

لم تضع تركة لافكرافت لأن تلاميذه وعلى رأسهم (أوجست ديرليث) قاموا بافتتاح دار نشر اسمها (آرхам Arkham) وقد تولت نشر أعماله المتناثرة في عشرات المجلات ، فالرجل لم يصدر أي كتاب في حياته سوى (ظل فوق اينزماوث) . كان

(ديرليث) تلميذاً مخلصاً لكنه بالغ بعض الشيء ؛ لأنه أصدر كتاباً كاملاً يدور حول محاوراته مع (لافكرافت) ، وفيما بعد اتضح أنها محاورات لم تحدث قط بل هي وليدة خياله !

اليوم يمثل (لافكرافت) تراثاً شديد الأهمية في الأدب الغربي والأمريكي بالذات لا يقل عما تركه الشاعر العظيم إدجار آلان بو .

د . أحمد خالد

نداء كتولو

1- رعب على الصلصال ..

أعتقد أن أكثر الأشياء رحمة هي عجز العقل البشرى عن الإلمام بمكونات الكون . نحن نعيش فى جزيرة هادئة من الجهل وسط بحار سود من اللاتهائية ، وقد كتب علينا ألا نبهر بعيداً . والعلوم التى يبهر كل منها فى اتجاه لم تؤدنا كثيراً ، لكن يوماً ما سوف تنجح تلك المعارف المتناثرة فى فتح ثغرات فى جدار الحقيقة ، ونفهم وضعنا المخيف . عندها إما أن نجن أو نفر من الضوء إلى الظلام والأمان حيث العصور المظلمة الجديدة .

لقد فهم علماء الدين والفلاسفة حجم الكون المروع الذى يبدو فيه وجودنا البشرى مجرد حوادث عارضة . لقد لمحوا ، لكن ليس كلامهم هو مصدر ما أراه من تلك الحقب المظلمة التى تفرغنى عندما أفكر فيها ، وتثير جنونى عندما أحلم بها . هذه اللحظة جاءت من احتشاد أشياء متناثرة .. مثلاً فى هذه الحالة جاءت من جرائد قديمة ومذكرات أستاذ جامعى ميت . وأتمنى ألا ينجح شخص آخر فى جمع هذه الصورة ثائية ، لأننى ما دمت حياً لن أضع حلقة أخرى فى تلك السلسلة المخيفة .

أحسب أن البروفسور أراد أن يخفى ما يعلمه ، وكان ليدمر المذكرات لولا أن الموت اختطفه .

بدأ كل شيء عام 1926-1927 مع وفاة عمى (جورج جامل أنجيل)
الأستاذ الفخرى للغات السامية فى جامعة براون بروفدينس ..
كان عمى حجة فى النصوص القديمة وكانت متاحف كثيرة
تستشيرها لذا سوف يتذكر كثيرون وفاته فى سن التسعين . وفاته
أيضا كانت غريبة لأنه هلك وهو يغادر قاربه إذ دفعه زنجى له
سمت البحارة . لم يعرف الأطباء سبب الوفاة وإن قدروا أنه خلل
فى قلب العجوز الذى لم يتحمل تلك السقطة .. لم أر شيئا غريبا
فى هذا .. لكننى فيما بعد بدأت أتساءل وما زلت ..

كنت وريث عمى ومنفذ وصيته لأنه مات أرمل بلا ابن . لهذا
قمت بنقل كل أوراقه إلى مكتبى فى بوسطون لأن على أن
أدرسها بعناية . معظم هذه الأوراق ستنتشرها الجمعية الأثرية ،
لكن هناك صندوقا واحدا أكره أن يراه أحد .

كان مغلقا ولم أجد المفتاح حتى خطر لى فحص حلقة المفاتيح التى
يحملها عمى فى جيبه ، وبالفعل فتحتة لكنى وجدت عقبة أصعب ..

ما معنى نقش غريب على قطعة صلصال ومجموعة أوراق
لا علاقة بينها ؟ .. هل كان عمى فى أواخر أيامه ضحية نصب ؟ ..
كان النقش على شكل مستطيل سمكه أقل من بوصة ومساحته
ست بوصات ومن الواضح أنه حديث العهد .. لكن تصميمه كان

لا يمت للحدثاة بصلة بل هو يمت للانتظام الغامض المميز لكتابات
الأقدمين . ومن الغريب أن عمى لم يشر قط لهذه القطعة فى
أوراقه كأنها لم توجد .

فوق النقوش كان حفر لشكل معين يصعب تبين طبيعته ، لكنه
بدا لى كوحش ما أو رمز يمثل وحشا . ربما أقول لك إننى تخيلت
رؤية أخطبوط وتنين ورسم كاريكاتورى لإنسان ، لكنى بهذا لن أكون
أمنيا فى الوصف . رأس ذو ممسات فوق جسد قشرى له جناحان
ضامران ، وخلفية الصورة تعطى انطباعا ببنية هندسية ضخمة .

كانت الكتابة المرافقة لهذا الرسم بخط البروفسور ، وكانت
تحمل عنوان (طائفة كتولو) ، بحروف كتبت بعناية لا تسمح
بالخطأ . كان النص مقسما لقسمين ، الأول يحمل عنوان (1925
الحلم وأعمال الحلم بوساطة ه . أ . ويلكوكس) . والثانى يحمل
عنوان (قصة المفتش جون ليجراس من نيو أورليانز) . وكانت
باقى الأوراق تضم أجزاء من كتب عن أطلنيس وليموريا . كما
كان هناك كلام عن كتاب (الفصن الذهبى) لفريزر وكتاب مورى
(جماعات السحر فى شرق أوروبا) .

القسم الأول كان يحكى حكاية معينة : يبدو أنه فى مارس عام
1925 قد زار البروفسور شاب أسمر نحيل بلدى العصبية والقلق ،
ومعه قطعة الصلصال التى كانت طازجة لينة وقتها . كانت بطاقته

تحمل اسم (هنرى أنطونى ويلكوكس) ، وقد عرف عمى أسرته . وهو يدرس الفنون ويعيش وحده فى (فلير دى ليس) . كان الفتى شديد الذكاء لكنه غريب الأطوار بسبب اهتمامه بدراسة الظواهر الغريبة وكان يعتبر نفسه (شديد الحساسية نحو الخوارق) . لما كان منطوياً صار خفياً بالنسبة لمجتمعنا ، فلم يعد يعرفه سوى عدد قليل من الناس فى البلدان المجاورة .

كان قد جاء لعمى يطلب عونه فى قراءة النقوش على الصلصال .. لكن عمى كان حاداً معه لأن طزاجة العينة التى أحضرها جعلت لها علاقة بكل شيء ما عدا علم الآثار . لكن الفتى أفهمه أن هذا الصلصال حديث فعلاً لأنه نقش عليه ما رآه فى الحلم .

هكذا بدأ يحكى القصة الغريبة التى نالت اهتمام عمى المحموم .

ليلة أمس كانت هناك هزة أرضية خفيفة ، وهى أقوى هزة شعرت بها (نيو إنجلند) منذ سنوات . عندما نام الفتى حلم بمدن عملاقة بها مبان ضخمة ونصب حجرية تناطح السماء ، كلها ينز منها سائل أخضر لزج ويغمرها رعب خفى . كانت النقوش الهيروغليفية تغطى كل شيء ، ومن مكان ما جاء صوت ليس بصوت ، بل هو شعور مضطرب يقدر الخيال فقط على أن يعتبره صوتاً . لكنه تبين فيه كلمة (كتولو فاتجن) .

كانت هذه الكلمات مما أثار عمى البروفسور (أنجل) . وراح يستجوب الفتى ويتفحص النقش الذى صنعه على الصلصال . فيما بعد ندم عمى كثيراً لأنه لم يفهم المعنى الفورى لهذه النقوش ، وأضاع الكثير من الوقت يستجوب الفتى عما إذا كان ينتمى لجماعة دينية أو وثنية سرية مع الوعد بأن يظل الأمر سراً . فلما أيقن أن الفتى لا يدارى سراً أخذ منه وعداً بأن يخبره بمحتوى أحلامه فى المرات القادمة .

فى المرات التالية تكررت أحلام مماثلة ، لكن الفتى كان يسمع فيها دوماً كلمتى (كتولو) و (رليه) ..

فى 23 مارس لم يظهر الفتى ، وبالسؤال عنه عرف أنه مصاب بحمى غامضة وقد نقل إلى بيت أسرته فى شارع (ووترمان) . هكذا ظل عمى يتصل لمعرفة أخباره كما راح يتردد على طبيبه المعالج . كان الفتى غارقاً فى الهلوس وقد تكررت ذات الرؤى التى وصفها من قبل ، مع وصف شيء ارتفاعه عدة أميال يتحرك ..

كان رأى الطبيب أن الحمى ناجمة عن مرض عضوى ، ولا يمكن تفسيرها باختلال عقلى .

فى 2 إبريل زالت كل أسباب مرض (ويلكوكس) وجلس فى فراشه مندهشاً من كونه فى بيته ، فهو لا يذكر أى شيء حدث له منذ 22 مارس . وقد رأى الطبيب أنه استعاد صحته ، لذا عاد لدراسته .

لم يعد الفتى ذا نفع للبروفسور (أنجل) لأن كل ذكريات الحلم اختفت مع شفائه . هنا ينتهى الجزء الأول من المذكرات لكن هناك مذكرات أخرى جعلتلى أفكر بعمق .

كانت تلك المذكرات تصف أحلام أشخاص آخرين ، تقع فى ذات الفترة التى تدور فيها أحلام ويلكوكس . لقد أجرى عمى بحثاً مفصلاً بين مجموعة كبيرة من الناس يطلب منهم فيه أن يحكوا أحلامهم . لا أعرف مدى الاستجابة لمطلبه ، لكنه تلقى أوراقاً تفوق قدرة رجل بلا سكرتير على المتابعة .

كان الناس العاديون الذين يشكلون (ملح الأرض) فى نيو إنجلاند لا يشكلون أهمية ما لأنهم لم يروا شيئاً ، برغم بعض حالات متناثرة مقلقة كلها فى الفترة بين 22 مارس و2 إبريل . العلماء كذلك لم يعطوا معلومات مهمة .. فقط الشعراء وأهل الفن هم من أعطوا إجابات مهمة . وكان الذعر ليصيبهم لو قارنوا أحلامهم ببعضها .. أحد الحالات كان مهندساً مولعاً بالأمور الغامضة وقد أصابته حالة جنونية تتوافق مع الحمى التى أصابت ويلكوكس ، ثم مات بعد هذا بشهر وهو يصرخ طالباً من ينقذه من شىء فر من الجحيم .

يبدو أن عمى استعان بوكالة صحفية ما تجمع له أخبار الصحف حول العالم .. مثلاً هناك مهندس فى لندن كان يحلم ثم نهض صارخاً وألقى بنفسه من نافذة . هناك أخبار من أمريكا الجنوبية . فى الهند هناك برقية تصف هياجاً بين الأهالى فى يومى 22 و23 مارس . هناك رسام فرنسى علق لوحة مخيفة اسمها (صورة حلم) فى صالون باريس .

عدد كبير من القصصات ، جعلنى أتساءل كثيراً عن معنى هذا .

2- حكاية المفتش ليجراس ..

الأمر التي شكلت أحلام النحات وجعلت عمى مهتمًا بالنقوش لهذا الحد ، كانت هي موضوع القسم الثاني من النص . يبدو لي أن البرفسور نفسه رأى المعالم الجحيمية لتلك البشاعة التي لا اسم لها والنقوش الهيروغليفية الغامضة وسمع المقاطع التي تبدو مثل (كتولو) .

حدثت هذه التجربة المبكرة عام 1908 قبل 17 عامًا عندما عقدت جمعية الآثار الأمريكية اجتماعها السنوي في سانت لويس . هذه اللقاءات فرصة يقصدها كل من لديه أسئلة يبغي إجابات عنها ، وكان من جاء لهذا الاجتماع رجلاً عادى المظهر في منتصف العمر جاء من (نيو إنجلند) طلباً لمعلومات ما كان ليحصل عليها من مصدر آخر . كان اسمه (جون ريمون ليجراس) وكان مفتش شرطة . ومعه كان يحمل تمثالاً منفراً قديماً جداً عجز عن تحديد مصدره . وعليك ألا تتخيل أن المفتش كان لديه أي اهتمام بالآثار . كان الأمر اهتماماً مهنيًا صرفاً .. لقد وجدوا التمثال جنوبى نيو أورليانز أثناء (كبسة) قاموا بها على حفل لسحرة الفودو ، وكانت الطقوس مخيفة لدرجة أن

البوليس عرف أنه وجد ديانة مجهولة لهم بالكامل ، أكثر شيطانية من أية ديانة فودو أخرى .

لم يتمكن أحد من معرفة أصل هذه الطقوس لهذا قدر رجال الشرطة أن التمثال قد يقودهم لمعرفة مصدر هذه الممارسات الشنيعة .

لكن المفتش لم يتوقع رد فعل العلماء الذين رأوا التمثال فالتفوا حوله .. قدمه و غرابية أسلوب النحت جعلاه غريباً غير مألوف . كان ارتفاعه نحو سبع بوصات يمثل وحشاً له منظر شبه بشرى ، لكن رأسه هو أخطبوط ، وجلده زلق مغطى بالحرشف وله جناحان صغيران . كان مكتنزاً يجلس على صخرة عليها كتابة لا يمكن فهمها . كان الرأس مائلاً للأمام بينما امتدت ممساته تلمس مخالفه الأمامية . أما أكثر ما يثير الذعر فهو أن كل شيء حقيقى جداً وبرغم هذا لا يمكن معرفة مصدره . حروف الكتابة كانت غريبة جداً فلم يستطع أى واحد من هؤلاء الخبراء العالميين تحديد شيء عن مصدرها .

الموضوع والمادة كاتا ينتميان لشيء بعيد جداً وغريب على البشرية كما نعرفها . شيء يذكرك بشكل مروع بدورات الحياة التي لم تكن فيها ..

فقط كان هناك رجل واحد تذكر شيئاً مماثلاً ، وهو المرحوم (ويليام تشاتنج ويب) أستاذ الأثروبولوجى فى جامعة برنستون . كان الرجل قد قام برحلة استكشافية منذ 48 عاماً إلى جزيرة جرينلاند بحثاً عن آثار (رونية) . على الساحل الغربى قابل قبيلة من الإسكيمو لهم دين غريب يقوم على عبادة الشيطان ، أثاروا رعبه بدموية وبشاعة معتقداتهم . وكانوا يؤمنون أن هذه الديانة جاءت من عصور سحيقة قبل وجود عالمنا . كان هناك كلام عن شيطان قديم اسمه (تورناسوك) حصل البروفسور على تسجيل صوتى كامل عنه من ساحر عجوز أو (أنجيوك) .

كانت هذه القبيلة تملك فتيشاً خاصاً بها وترقص حوله عندما يبرز الشفق القطبى . هذا الفتيش كان يشبه فى كل شيء هذا التمثال الذى يراه الآن ..

أثارت هذه المعلومات شغف (ليجراس) الذى أمطر البروفسور بالأسئلة . طلب منه أن يتذكر طقوس عبادة هؤلاء الإسكيمو الشيطانيين ثم قارنها بما سجله من طقوس الفودو التى شهدتها فى لويزيانا . لقد ذهل الرجلان لمدى التطابق بين طقسى تعبد متباعدين فى المكان .. هناك جملة تتردد بشكل واضح فى الطقسين :

- « فنوجلوى مجلوناف كتولو رليه وجاتانج فتاجن .. »
وكان المفتش قد سأل هؤلاء الذين اعتقلهم عن معنى هذه الكلمات فقالوا له إنهم عرفوا من أجدادهم أن معناها :
- « فى بيته فى (رليه) ينتظر كتولو الميت ويحلم .. »

فى الأول من نوفمبر عام 1907 جاء بلاغ لشرطة نيو أورليانز من سكان الجنوب حيث المستنقعات . إن السكان هناك طيبون لكنهم بدائيون نوعاً يعانون خوفاً شديداً من شيء ينقض عليهم ليلاً . كان سحر فودو ولكنه أكثر إرعاباً من أى سحر عرفوه . لقد بدأت نساؤهم وأطفالهم فى الاختفاء مع صوت دقات الطبول التى تدوى وراء الأحراش حيث لا يجسر أحد على الذهاب .

هكذا انطلق عشرون رجل شرطة فى سيارتين ومعهم أحد السكان المذعورين كدليل لهم . وراحت السيارتان تشقان طريقهما عبر أحراش لا يخترقها الضوء . فى النهاية وصلوا إلى المستعمرة فهرع السكان يستقبلونهم حاملين المصابيح والذعر فى عيونهم ؛ لأن صوت الطبول كان يدوى من بعيد . ومن حين لآخر تدوى صرخة تجمد الدم فى العروق .

رفض الأهالى جميعاً أن يتقدموا خطوة واحدة نحو مكان تلك الطقوس الدنسة . هكذا اضطر المفتش ليجراس ورجاله إلى أن يذهبوا وحدهم نحو مصدر تلك الضوضاء .

كانت المنطقة التي دخلها رجال الشرطة منطقة محرمة على البيض ، تسود فيها أساطير عن كائن أبيض عملاق كثير الزوائد له عينان لامعتان ، وقيل إن الشياطين التي تبدو كالوطاويط تخرج من كهوف في جوف الأرض كي تعبد هذا الكائن في منتصف الليل . وقيل إنه هناك قبل الهنود .. قبل أن توجد وحوش الغابة .. كان هو الكابوس ذاته ، وكان معنى أن تراه أن تموت ، لكنه كان يرغب الناس على الحلم .

فقط لا يقدر على فهم الأصوات التي سمعها ليجراس سوى الجنون أو الشعر .. هناك نغمات تدل على وجود بشر ونغمات تدل على وجود وحوش . وكانت أغنية مرعبة ترتفع :

« فنوجلوى مجلوناف كتولو رليه وجانانج فتاجن .. »

هنا وجد الرجال أنفسهم في البقعة التي جاء منها الصوت .. فر واحد ، وأحدهم فقد وعيه ، وصرخ اثنان من هول ما رأيا ..

وسط الأشجار كانت جزيرة معشبة وسطها حشد من القوم العراة يرقصون ويتلوون حول نار مشتعلة ، في وسطها نصب عملاق ارتفاعه ثمانية أقدام على قمته ذلك التمثال ، وحول هذا التمثال كانت سقالات علق عليها عشرة من السكان الأصليين الذين اختفوا ، وقد تشوهت أجسادهم ورءوسهم لأسفل . ربما

كان صدى الصوت هو ما أوحى للشرطة أن هناك من يرد على الغناء وسط الأحرار .

تصلب الرجال للحظات ثم جاء الواجب .. وبرغم أنه كان هناك نحو مائة شخص في الاحتفال ، فإن رجال الشرطة أخرجوا أسلحتهم ، ولخمس دقائق كانت الفوضى عسيرة على الوصف .

فر كثيرون لكن (ليجراس) استطاع أن يعد 45 أسيرًا أرغمهم على ارتداء ثيابهم والمشى وسط صفين من رجال الشرطة . مات خمسة من المتعبدين ورقد اثنان بجراح عميقة . وانتزع (ليجراس) التمثال بعناية ، وأخذه معه .

كان أكثر الرجال زنوجًا أو مهجنين ، وبعضهم كانوا برتغاليين من جزر (كيب فيردى) .. قالوا إنهم يعبدون (الآحاد القدامي) الذين وجدوا قبل أن نوجد نحن وجاءوا من السماء . هؤلاء الآحاد قد غابوا تحت البحر ، لكنهم قادرون على إرسال الأحلام لأتباعهم . قالوا إن هذه العبادة موجودة منذ الأزل وسوف تظل كذلك .. إلى أن ينهض الكاهن الأعظم (كتولو) من سباته وسط أطلال مدينة (رليه) ليحكم الأرض ثانية .

هنا صمت الرجال .. كان هناك سر لا يستطيع التعذيب نفسه أن ينتزعه منهم ..

لا أحد رأى الآحاد القدامى .. التمثال المنحوت هو (كتولو) لكن من الصعب أن تعرف إن كان الباقيون يشبهونه . الأغنية التى يغنونها تقول :

« فى بيته فى (رليه) ينتظر كتولو الميت ويحلم .. »

لم يجدوا بين المساجين سوى اثنين عاقلين بما يسمح بشنقهما أما الباقيون فقد أرسلوا لمصحات مختلفة . المعلومات الوحيدة ذات القيمة كانت من رجل نصف هندي نصف أوروبى اسمه (كاسترو) قال إنه سافر لموانٍ بعيدة وتكلم عن هذه الديانة مع الكهنة فى الصين . حكى عن حقب حكمت فيها تلك الكيانات الأرض وكانت لهم مدن عظمية . وبقايا تلك المدن موجودة فى بعض جزر المحيط الهادى . هم موتى لكن من الممكن أن يعودوا لو أن النجوم اتخذت موضعاً مناسباً .

« هؤلاء جاءوا من النجوم .. وجلبوا صورتهم معهم .. »

هم ليسوا من لحم ودم .. لهم أشكال لكنهم غير مكونين من مادة .. كلهم ينتظرون فى مدينتهم العظمية (رليه) بانتظار التعاويذ التى سيلقيها كاهنهم (كتولو) ..

هم ينتظرون فى الظلام ويحلمون ، فتمر عليهم ملايين السنين لكنهم يعرفون كل ما يدور فى الكون لأن طريقة تفاهمهم هى الأفكار . سوف ينتظرون حتى الوقت المناسب قبل أن ينهضوا .. هذا الوقت المناسب تسهل معرفته لأن البشر سيكونون وقتها مثل الآحاد القدامى ، أحراراً لا يبالون بالخير أو الشر ولنسوف يتخلصون من الأخلاق ويقتلون بعضهم البعض . وسوف يعلمهم الآحاد القدامى المزيد من وسائل المتعة حتى تصير الأرض محرقة من الجنون .

قال إن مركز هذه الديانة هو فى صحراء العرب حيث توجد (إرم) ذات العماد .. وإنه لم يرد ذكر لها فى أى كتاب ما عدا كتاب (نيكرونوميكون) الذى كتبه الشاعر المجنون (عبد الله الحظرد) .

لهذا لنا أن نتخيل دهشة عمى عندما قابل بعد هذا شاباً حساساً يرى ذات الرؤى التى وصفها (ليجراس) ، واستطاع كذلك أن يلفظ بشكل صحيح ثلاث كلمات من التى نطق بها الإسكيمو .

برغم كل شىء لم أستبعد أن يكون (ويلكوكس) الشاب قد سمع عن تلك الطقوس فى مكان ما ، من ثم اختلق قصة هذه الأحلام ليحير عمى .

بدالى هذا هو أقرب الاحتمالات للمنطق . وقرأت بعناية وصف (ليجراس) للقصة ، ثم صممت على أن أسافر إلى بروفيدينس لأوجه له التوبيخ الضرورى بسبب خداعه لرجل مسن ومتعلم مثل عمى .

كان ما زال يعيش فى (فلير دى ليس) فى شارع توماس . وهو مكان يقلد بشكل قبيح طراز المباني الفكتورية فى القرن السابع عشر .

وجدته يعمل فى غرفته وأدركت من القطع التى نحتها والمحيطه به أن الفتى موهوب وأصيل . لقد نحت بالصلصال ويوماً ما سيفعلها بالرخام تلك الخيالات المفزعة التى خلدها (آرثر ماشن) بالشعر . كان هشاً شاحباً وقد سألتنى عن سبب قدومى فقلت له من أنا . وقد أثار اسمى اهتمامه ، وبعد قليل من الكلام لم يعد عندى شك فى صدقه . لقد أثرت تلك الأحلام على أعماله النحتية ، وقد عرض على تمثالاً ذا منحنيات جعلت الأفكار السود تعمل فى رأسى . لا يذكر متى رأى هذا الشكل ولكنه حاول نقشه على الصلصال أولاً وهو يشعر أن هذا هو الشيء الذى كان يراه فى أحلامه .

لم يكن يعرف شيئاً عن تلك الديانة الغامضة ، وكان يتكلم عن أحلامه بطريقة شعرية . يصف المدينة ذات النصب العملاقة من الحجر الأخضر ، التى قال إن تصميمها الهندسى خطأ تماماً .

راح يردد النداء الذى كان يسمعه :

- « كتولو فتاجن .. »

وهو جزء من النداء الموجه لكتولو فى سباته ، مما جعلنى أرجح أن الفتى سمع عن الأسطورة ونساها . لابد أنه صادق وأن تأثيره على عمى لم يأت بقصد .

ظلت فكرة تلك العبادة تحيرنى وتفتتنى ، وقد زرت لويزيانا وقابلت ليجراس ومن بقى حياً من تلك الغارة القديمة . لقد بدأت أشعر بأننى على طريق كشف مهم .. كشف سرى .. كشف عميق وقديم .. كشف سيجعلنى من علماء الأنثروبولوجى المرموقين .

شئ واحد كنت أخافه هو أن يتضح أن موت عمى لم يكن طبيعياً ، فقد سقط من فوق منحدر بعد ما دفعه بحار زنجى هجين . تذكرت كلام (ليجراس) عن الدم الهجين فى لويزيانا . هل تكون تحريات عمى عن الموضوع قد بلغت آذاناً شريرة ؟ أعتقد أن البروفسور مات لأنه عرف أكثر مما يجب أو لأنه كان فى طريقه ليعرف أكثر مما يجب .

لقد عرفت الكثير وبقى أن أحدد ما إذا كنت سأقتفى خطوات عمى أم لا .

3- جنون من البحر ..

لو أرادت السماء أن تمنحني هدية ، فلتكن هي نسيان الصدفة التي جعلت عيني تقعان على صفحة جريدة . ما كان الأمر ليلفت نظري في العادة ، لكنه كان عددًا من جريدة أسترالية اسمها (نشرة سيدني) عدد 18 إبريل 1925 .

كنت أزور صديقًا مثقفًا في (باترسون نيو جيرسي) ، وهو أمين متحف ومختص بعلم المعادن . كنت أتفحص العينات الموضوعية على الأرفف في المتحف حين وجدت صورة غريبة في جريدة وضعت تحت الحجارة . وكانت الصورة تظهر نصبا مخيفًا يشبه ذلك الذي وصفه (ليجراس) .

أخرجت الجريدة بحذر وقصصت الخبر ، وكان يقول :

العثور على سفينة مهجورة في البحر

وصلت السفينة (فيجلايت) وهي تجر يختًا نيوزلنديًا معطلًا . ناج واحد وجثة على ظهر اليخت . قصة عن صراع الموت في البحر . البحار الناجي يرفض نكر التفاصيل وإن وجد صنم غريب في حوته .

وصلت السفينة فيجلايت إلى دارلنج هاربر وهي تجر اليخت المعطل المدجج بالسلاح (ألبرت) . كانت السفينة فيجلايت قد تعرضت بعد إقلاعها لرياح قوية أبعدتها عن مسارها ، وفي 12 إبريل شوهد اليخت المهجور ، وتبين أن على ظهره رجلًا فاقد الوعي وجثة رجل آخر يبدو أن أسبوعًا مر على وفاته . كان الرجل الحي يحمل صنمًا غريب الشكل اعترفت الجهات العلمية في جامعة سيدني بأنها لا تملك فكرة عنه .

لما ألقى الرجل حكي قصة غريبة عن القراصنة . اسمه جوستاف يوهانسن .. نرويجي . كان المساعد الثاني على ظهر السفينة ذات الشراعين (إما) التي أفلتت في 20 فبراير وعلى ظهرها 11 رجلًا . قال إنهم قابلوا اليخت (ألبرت) يقوده طاقم غريب شرير الشكل من كنساس ، وقد أصدروا لهم الأمر بالتراجع فرفضوا . بدأ الطاقم يطلق الرصاص على بحارة (إما) فرد طاقم السفينة . لكن بحارة اليخت نجحوا في أن يعتلوا السفينة التي أوشت على الغرق بفعل ما أصابها من مدافع . دارت معركة عنيفة وفي النهاية قتل ثلاثة من بحارة (إما) ، لكن الباقين تمكنوا من النجاة بقيادة (يوهانسن) نفسه الذي اضطر لركوب اليخت بعد إصلاحه . تمكنوا في 23 مارس من بلوغ جزيرة بشكل ما ، ثم مات ستة رجال على الشط .. فر يوهانسن ورجل آخر على ظهر اليخت في 2 إبريل لكن الريح غلبتهم وتقاذفهم ، ومنذ ذلك الحين حتى إفاقة لا يذكر الرجل ما حدث له على الإطلاق ..

كان البحارة يعرفون اليخت (ألبرت) جيدًا بطاقمه الشرير ، كما أن الأدميرالية أطرت يوهانسن وبراعته كثيرًا ، وأعلنت أنها ستحاول إجراء تحقيق شامل حول ما حدث .

انتهى الخبر لكن أية أفكار جلبها لى ..! إن التواريخ أبعد من أن تكون صدفة .. كل هذه الأحداث تدور فى ذات الوقت عبر العالم .. وماذا عن عاصفة 2 إبريل ..؟ نفس التاريخ الذى توقفت فيه أحلام الحالمين وأفاق (ويلكوكس) من قيود الحمى ..؟

سافرت إلى سيدنى وأجريت تحقيقات لا نفع منها مع البحارة فى الأدميرالية ، ورأيت اليخت (ألبرت) الذى تم إصلاحه ويستخدم فى الملاحة التجارية .

رأيت ذلك التمثال الغريب فى متحف التاريخ الطبيعى ، وقال لى أمين المتحف إن الجيولوجيين وجدوا فيه لغزاً بلا حل .. فهم متأكدون من أن العالم لا يحوى صخوراً من هذا النوع . تذكرت ما قاله (كاسترو) العجوز للمفتش (ليجراس) :

« هؤلاء جاءوا من النجوم .. وجلبوا صورتهم معهم .. »

قررت أن أقصد أوصلو لأزور (يوهانسن) مساعد السفينة (إما) .. هكذا أبحرت إلى لندن ثم انطلقت مباشرة إلى النرويج ..

وفى يوم خريف اتجهت لبيت الرجل ، وكان فى المدينة القديمة للملك (هارولد هاردادا) الذى حفظ للمدينة اسم (أوصلو) برغم أنها كانت تحمل اسم (كريستينا) طيلة الحروب الصليبية .

طرقت الباب فبرزت لى امرأة ذات وجه حزين وثوب أسود . وتصلبت مصعوقاً عندما أخبرتنى أن (يوهانسن) لم يعد على وجه الأرض .

قالت المرأة إنه لم يعيش طويلاً بعد عودته لأن أهوال البحر حطمته . كان يمشى على مرفأ جوتنبرج عندما سقطت فوقه حزمتان من الصحف من صندرة بيت .. ساعده بحاران على النهوض لكن قبل أن تبلغه عربة الإسعاف كان قد مات . لم ير الأطباء سبباً لوفاة وقدروا أن قلبه الضعيف هو السبب .

شعرت بذعر .. هذا الرعب لن يفارقنى إلى أن أموت أنا فى حادث أو بأى شكل آخر .

كان الرجل قد ترك لزوجته بعض الأوراق المكتوبة بالإنجليزية ، وقد سمحت لى بأن أخذها معى لأنها لا تهتم لما فيها . هكذا استطعت قراءة الأوراق وأنا على السفينة عائداً إلى لندن .

كانت مذكرات بحار يصف تفاصيل رحلته . هى مليئة بتفاصيل لا داعى لها لذا سأحاول أن أخصها لك فقد تفسر لماذا لم أجد أطيع صوت الماء وهو يضرب جانبى السفينة ، حتى إننى سددت أذنى بالقطن .

لم يعرف (يوهانسن) كل شيء ، لكننى لا أستطيع النوم بسهولة ثانية وأنا أعرف الأحوال التى نجهل عنها كل شيء . وتلك الكيانات المخيفة التى تحلم تحت البحر ، بينما عدد من الأنبياء ينتظرون أية فرصة ليحرروها مع أول هزة أرضية تالية ، كى تتحرر من جديد وتخرج للشمس والهواء .

لقد غادر (يوهانسن) على السفينة (إما) فى 20 فبراير . وقد شعر بالقوة الكاملة لذلك الزلزال الذى حرك قاع المحيط ذاته . مضت السفينة بعد هذا حتى قابل اليخت (ألبرت) فى 22 مارس وحدثت تلك المعركة . ابتعد اليخت وعليه (يوهانسن) ورجاله كما قالت الصحيفة ، إلى أن رأوا عموداً صخرياً يبرز من البحر عند خط عرض $47^{\circ}9'$ وخط طول $123^{\circ}43'$. هنا وجدوا أنفسهم أمام بقايا المدينة الكابوسية المسماة (رليه) . المدينة التى بنتها منذ زمن سحيق تلك الكائنات المربعة التى جاءت من النجوم .

هناك كان (كتولو) وعشيرته يرقدون فى قباب طينية خضراء عملاقة يبعثون بلا توقف تلك الصور التى صارت أحلام الأشخاص الحساسين ، ويطلبون المخلصين لهم كى يأتوا .

لم ير (يوهانسن) هذا كله لكنه رأى ما يكفى !..

لا بد أن الذهول أصابه ورفاقه وخننوا أن هذا المشهد لا يمت بالتفصيل إنما يعبر للعالم الحالى . عندما يصف يوهانسن المدينة فى أوراقه فهو لا يصفها عن انطباع عام لصخور عملاقة .. عملاقة بحيث لا تنتمى لشيء يمت لهذا العالم . عليها نقوش مفزعة وكتابة هيروغليفية . علق الرجل كذلك على الزوايا الغريبة للمباني وهو يذكرنى بما قاله (ويلكوكس) عن هندسة هذا المكان وكيف أنها لا تمت للهندسة الإقليدية Euclidean التى نعرفها .

لقد هبط يوهانسن ورجاله على ضفة موحلة من تلك المدينة وتسلقوا فوق صخور لا يمكن أن تكون درجات سلم تمت لعالمنا الفانى . كانت الشمس تبدو مشوهة عندما تراها عبر البخار المتصاعد من هذا الهول المبتل . النظرة الثانية تجعلك ترى أشكالاً محدبة بعد ما كنت تراها مقعرة .

شعر الرجال برعب هائل برغم أنهم لم يروا سوى صخور وحجارة . وكان كل منهم موشكاً على الفرار لولا خشيتهم من سخرية رفاقه .. وكانوا يفتشون عن شيء قابل لحمله كذكرى يحملونها للوطن . كان البرتغالى (رودريجز) هو من تسلق قمة البناء وهتف يناديهم كى يروا ما رآه . هرعوا يرون فرأوا الباب العملاق وعليه نقش الكائن الأخطبوطى الذى ألفوه . عرفوا أنه باب من عتبه ومن عارضته العليا ولكنهم لم يعرفوا هل هو

بالعرض أم مائل .. هندسة المكان كلها كانت خطأ .. لا يمكن أن تعرف إن كانت الأرض أفقية أم لا ..

تحسس الرجال الباب بحثاً عن طريقة لفتحه ، ثم تسلقوه .. فجأة وببطء شديد بدأت العتبة تنفتح . كان هذا الشيء يدور باتجاه منحرف متحدياً كل قوانين المادة والجاذبية .

كانت الفتحة سوداء خلفها ظلمة توشك أن تلمسها . بالفعل كانت كذلك لأنها أخفت أجزاء داخلية من الباب كان يجب أن تكون مرئية . فى الواقع خرجت الظلمة من محبسها وأظلمت السماء لأنها حلفت بجناحين غشائيين .

كانت الرائحة المنبعثة من هذه الفتحة لا تطاق . وأحس (هوكنز) ذو الأذنين الحساستين بأنه يسمع شيئاً كريهاً ينزلق تحت . وقف الجميع يصغون .. ظلوا يصغون عندما ظهر الشيء وحشر كياته الهائل الجيلاتينى الأخضر عبر الفتحة ليخرج إلى هواء المدينة .

هنا تخلت عن (يوهانسن) قدرته على الكتابة ..

يعتقد أن رجلين من رجاله هلكا بفعل الذعر فى هذه اللحظة . لا يمكن وصف الشيء .. لا توجد لغة قادرة على وصف هذا الجنون . هذه هى اللحظة ذاتها التى أصيب فيها (ويلكوكس)

بالحمى وانتحر مهندس معروف . لقد نهض الكيان القديم لينال حقه ، وما فشل فيه أتباع هذه الديانة على مدى قرون ، نجحت فيه مجموعة من البحارة التعسفين صدفة .

قبل أن يفر أحد سقط ثلاثة رجال وقد مستهم الممسات المخيفة . ووجد يوهانسن نفسه محشوراً فى أحد زوايا البناء .. زاوية بدت لعينة حادة لكنها كانت منفرجة من الداخل .

تحرر وجرى مع صاحبه (بريدن) نحو اليخت ..

لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق كي يتحرك اليخت (ألبرت) مبتعداً عن تلك المياه اللعينة .

لكن كتولو المرعب تقدم نحو الضفة وانزلق فى الماء وراح يسبح نحوهما بضربات ترفع الأمواج بقوة كونية . ظل (بريدن) يرمق المشهد ويضحك .. وظل يضحك ويضحك حتى مات ذات ليلة فى القمرة ، أما (يوهانسن) فبدأ يهذى . لكنه تماسك لأنه أدرك أن بوسع الشيء الذى سد الطريق أن يلتهم اليخت (ألبرت) فى أية لحظة ، لذا زاد سرعة المحرك ثم جرى على السطح وعكس وضع عجلة القيادة ..

دوى صوت مخيف وتصاعدت الفقائيع وتزايد البخار الخارج من المحرك . واندفع النرويجى الشجاع نحو كتلة الهلام العملاقة التى ارتفعت فوق الفقائيع .

اقرب الرأس المخيف جداً لكن (يوهاتسن) واصل الاندفاع نحوه .
رائحة عفنة كأنه ألف قبر مفتوح .. ضوضاء لا يقدر أحد على
تسجيلها على الورق .

وللحظة غاب اليخت فى سحابة خضراء عفنة الرائحة ، ثم
اخترق اليخت الشيء الكريه .. وهنا راح ذلك الشيء يلتحم ثانية
كأنه غاز سام ..

لكنه كان يتعد .. فى كل ثانية كانت المسافة تتزايد بينما
اليخت يظفر بمزيد من السرعة .

هنا فقط استطاع يوهاتسن أن ينزل إلى قاع اليخت ليظفر بشيء
من طعام له وذلك المجنون الذى لا يكف عن الضحك جواره .

ثم جاءت عاصفة الثاينى من إبريل فلم يعد يذكر أى شيء .

كأنه كان يبحر فى دوامات حول خلجان اللاهائية الذائبة ،
ويرحل عبر المجرات متعلقاً بذبول الشهب .. وثبات جنونية من
القاع إلى القمر ومن القمر للقاع ثانية ..

لا يعرف متى ولا كيف جاءت سفينة (فيجيلانت) لتتقذه .

لم يكتب ما رآه ولم يصفه حتى لا يحسبوه مجنوناً . فقط قرر
أن يكتب لما شعر بقرب موته . الموت سيكون شيئاً رائعاً لو
كان بوسعه محو الذكريات .

هذا هو ما كتبه وقد وضعت الأوراق جوار مذكرات عمى
وذلك النقش . لن أقدر على النظر إلى الكون بالطريقة ذاتها
ثانية ، وحتى سماء الربيع وشمس الصيف سوف تكون أقرب
إلى السم بالنسبة لى .

لا أحسب حياتى ستكون طويلة ؛ لأننى سأرحل كما رحل عمى
المسكين وكما رحل (يوهاتسن) . إن الأتباع أحياء وكذلك كتولو ..
لقد عادت مدينته اللعينة للغوص تحت البحر لأن (فيجيلانت) عبرت
تلك البقعة مرة أخرى فلم تر شيئاً .. لابد أنه فوجئ بأنه يغوص
ثانية ، وإلا لكان العالم يصرخ اليوم من الرعب والجنون .

من يعرف النهاية ؟ .. ما طفا قد يغوص وما غاص قد يطفو ..

البشاعة تنتظر وتحلم فى الأعماق بينما العطب يزحف على
مدن البشر . سوف يأتى وقت (كتولو) لكن ليس بوسعى
ولا يجب أن أفكر فى الأمر .

أدعو الله لو لم أعش طويلاً ، أن يتأكد من عدموتنى من أن
هذه السطور لن تراها عين بشرية أخرى .

موديل بيكمان

لا حاجة بك لأن تفترض في الجنون يا (إليوت) ، فالكثير ممن
سواي لديهم ميول أغرب من هذا . لِمَ لا تسخر من جد (أوليفر)
الذى لا يركب سيارة أبداً ؟ .. لو كنت لا أحب هذا النفق اللعين فهذا
شأنى . لقد وصلنا على كل حال بسرعة راكبين عربة أجرة ،
ولو أخذنا السيارة لكان علينا أن نتسلق التل من بارك ستريت .

أعرف أنني أكثر عصبية مما كنت عندما رأيتنى العام الماضى ،
لكن لا يجب أن تطلب رأى الأطباء . هناك سبب قوى وإتنى
لأحمد الله على أنى ما زلت محتفظاً بعقلى بعد هذا كله . لِمَ نركب
فى الدرجة الثالثة ؟ .. لم يكن الفضول من دأبك فيما سبق .

حسن .. لو كان ينبغى أن تعرف القصة فلا أرى سبباً يمنع
ذلك . ربما وجب هذا لأنك تكتب لى كأنك أب قلق منذ عرفت
أننى قاطعت نادى الفنون وقررت الابتعاد عن بيكمان . الآن وقد
اختفى الرجل صرت أتردد على نادى الفنون لكن ليس بكثرة لأن
أعصابى لم تعد كما كانت ..

لا .. لا أعرف ما حل بيكمان ولا أريد أن أخمن . لابد أنك
حدست أن لدى أسباباً دفعتنى للتخلى عنه ، لهذا لا أريد أن أفكر
فى المكان الذى ذهب له . دع رجال الشرطة يعرفوا ذلك ، فهم
لا يعرفون مثلاً بالمكان الشمالى فى (نورث اند) الذى استأجره
بيكمان باسم (بيترز) .

لا أعتقد أنني قادر على العثور عليه ثانية ، دعك من أنى لا أريد ذلك حتى فى ضوء النهار .

أخشى أنني أعرف لماذا أحتفظ بهذا سرًا ، ولسوف أتى لهذه النقطة . سوف تفهم عندما أنتهى لماذا لم أبلغ الشرطة . لا أستطيع العودة هناك حتى لو كنت أعرف الطريق . لم أعد قادرًا على اجتياز الأنفاق أو النزول لأى قبو وأعرف أن هذا يثير ضحكك .

أنا أعرف أن بيكمان كان موهوبًا وعبقريًا لهذا أقبل أى اتجاه يتخذه فى عمله ، ورأيت أن بوسطن لم تعرف فنانا أفضل من (ريتشارد أبتون بيكمان) . لم يتغير رأيى لحظة حتى عندما رأيت لوحة (غول يأكل) التى جعلت (مينوت) يقاطعه .

كما تعرف يحتاج المرء لموهبة عظيمة كى يخرج أعمالاً كالتي يقدمها بيكمان . كل رسام لأغلفة المجلات يمكن أن ينتثر بعض الألوان ويسميها (ليلة الساباث) أو (كابوس) لكنك تحتاج لفنان حقيقى كى تقدم لوحة مرعبة عن موضوع كهذا ؛ فالفنان الحقيقى هو من يعرف تشريح الخوف أو فسيولوجية الهلع . يعرف خلطة الظلال والخطوط والإضاءة التى تثير ذلك الإحساس النائم فينا بالغرابة . لهذا تبعث لوحات (فيوسيلي Fuseli) ^(*) القشعريرة فيك . كذلك (أنجارولا Angarola) الأمريكى امتلك تلك الموهبة . ترى ماذا يراه هؤلاء ويرسمونه ؟ .. لكن دعنا نشرب ونتكلم عن شىء آخر ..

(*) فنان بريطانى سويسرى المولد تخصص فى رسم الرعب وهو صاحب لوحة (الجاثوم) الشهيرة ..

تعرف أن نقطة قوة بيكمان كانت الوجوه .. منذ عصر (جويا Goya) لم أر فنانا رسم الجحيم ذاته على الوجوه .. قبل (جويا) عليك أن تبحث عن فناني القرون الوسطى الذين نحتوا الكراجل Gargoyles على كنيسة النوتردام . لقد صدقوا أشياء كثيرة وربما رأوا أشياء كثيرة كذلك ..

أنت سألت بيكمان عن مصدر رسومه فضحك .. تلك الضحكة الكريهة التى أفزعت (ريد) وجعلته يقطع بيكمان . ريد كان مولعًا بدراسة علم الأمراض ، وقد قال لنا إن بيكمان يثير نفوره بل ورعبه . قال إن ملامحه تتغير يومًا بعد يوم حتى إنه ليبدو أحيانًا غير آدمى .

لكن تذكر أنى لم أتخل عن بيكمان لسبب كهذا ، بل ازداد إعجابى به ، لأن لوحة (غول يأكل) كانت مذهلة . لم يقبل النادى عرضها كما لم يقبلها متحف الفنون الرفيعة كهدية . لم يشتريها أحد فظلت فى بيت بيكمان . هى الآن فى بيت أبيه فى (سالم) .. تعرف أن بيكمان من (سالم) وله جد شئق هناك بتهمة السحر عام 1692 .

لقد رأيت لوحاته فاتبهرت بها ، ولم يمر وقت طويل حتى صرت من المخلصين له . بدأ يثق فى أكثر فأكثر ، فلمح لى ذات ليلة أنني لو أغلقت فمى وتماسكت ، فهو سوف يرينى شيئًا غير معتاد .. شيئًا يفوق كل ما رأيته حتى هذه اللحظة .

قال لى فى حماس :

- « هل تعرف أنه كانت هناك طاحونة على تلة (كوب) عام 1632 ..؟ هل تعرف أن نصف الشوارع في (نورث اند) خطت عام 1650 ..؟ يمكنني أن أريك بيوتًا صمدت قرنين أو أكثر .. ما الذي يعرفه المعاصرون عن الحياة والقوى الكامنة خلفها ..؟ ماذا تعرف عن سحرة (سالم) ..؟ جدى كان بوسعه أن يخبرك بالكثير ، فقد شنق بينما (ماثر) اللعين^(*) يراقب المشهد لأنه كان مذعورًا من أن يحدث شيء يغير إيقاع الحياة الرتيب .. ألا لعنة الله عليه !.. ليت أحدهم امتص دمه ليلاً ..

« يمكنني أن أريك البيت الذي عاش فيه ، كما يمكنني أن أريك بيوتًا كان يخشى أن يدخلها برغم ادعائه الشجاعة .. كان يعرف أشياء .. هل تعرف أن (نورث اند) كان يحوى أنفاقًا تصل بيوت الناس ببعضها وتصلهم بالمقبرة والبحر ..؟ كانوا يسمعون أصواتًا لا يعرفون مصدرها طيلة الليل .. يمكنني أن أريك شيئًا غريبًا في قبو ثمانية بيوت من كل عشرة من البيوت التي بنيت قبل عام 1700 . كنت هناك ساحرات مع كل ما تستدعيه طقوسهن السحرية .. كان هناك قراصنة مع كل ما جلبوه من البحر .. مهربون .. الناس كانوا يعرفون كيف يعيشون في تلك الأزمنة !.. قارن بين هؤلاء وعقول اليوم الوردية المترهلة التي تهز أكتافها في استنكار لو رأت لوحة يخرج موضوعها عن منضدة شاي !

(*) كوتن ماثر Mather شخصية أمريكية حقيقية شهيرة جدًا تخصص في محاكمة الساحرات وإعدامهن وله عدة كتب عن السحر .

- « المزية الوحيدة للحاضر هي أنه غبي بحيث لا يفكر كثيرًا في الماضي . بم تخبرك الخرائط وأئلة السياح ؟.. لا شيء .. يمكنني أن أريك أزقة وممرات لا يشك في وجودها أحد من الأحياء .. وما من أحد يمكنه الانتفاع من هذه المعرفة .. لا .. هناك واحد يمكنه الانتفاع ، فأنا لم أجر هذا التنقيب بلا مقابل .

- « هل تعرف يا (ثيرير) أن لدى مرسومًا آخر هناك ، حيث يكون بوسعى أن أرسم الكوابيس مباشرة ؟.. بالطبع لا أخبر بهذا أحدًا من هؤلاء العجزة في النادي ، و(ريد) اللعين يهمس في كل مكان أنني وحش يهوى لأسفل في منحدر الارتقاء . لقد أزمعت منذ زمن أن أرسم الرعب كما نرسم الحياة من الحياة ذاتها .. لذا بحثت حيث يوجد الرعب ..

- « أعرف مكانًا أشك في أن ثلاثة رجال أحياء يعرفون عنه أى شيء .. إن عمره قرون ، وقد استأجرته من أجل بنر من القرميد في القبو .. هذا الكوخ يتهاوى لذا لم يعد أحد يعيش هناك وأكره أن أخبرك بضالة المبلغ الذي أدفعه . أرسم في القبو حيث الإلهام الكثيف لكنى استأجرت غرفًا أخرى في الطابق الأرضي ، وقد استخدمت اسمًا مستعارًا هو (بيتر) .

- « لو أردت سأخذك هناك الليلة .. سوف تحب الرسوم .. أنا أذهب هناك على القدمين لأننى لا أريد لفت الأنظار بسيارة

أجرة فى مكان كهذا . سوف نستقل عربة من (ساوث ستيشن)
قاصدين باترى ستريت ، ومن هناك لن تكون المسافة بعيدة . »

حسن يا إليوت .. لم يكن هناك الكثير مما أفعله بعد هذه الخطبة
البليغة ، سوى أن أمنع نفسى من الفرار بدلاً من ركوب أول
عربة أجرة وجدناها . سرعان ما وصلنا لشارع باترى ومشينا
جوار الميناء القديم .. لا أنكر الشوارع بدقة ولا أنكر أية تقاطعات
اتخذناها لكنه لم يكن زقاق (جريناف) على كل حال .

كان علينا أن نرتقى أقدم وأقذر زقاق رأيته فى حياتى ، بنوافذ
صغيرة مهشمة ومداخن شبه بالية تقف متهاكة أمام السماء
التي ينيرها القمر . لا أعتقد أن هناك أى بيت لم يكن موجوداً فى
عصر (كوتن ماثر) .

من هذا الزقاق دلفنا إلى اليسار حيث زقاق معادل صامت
وضيق بلا ضوء على الإطلاق . ثم كان ينحرف بزواوية منفرجة
إلى اليمين . أخرج مصباحاً سلطه على باب متهاك يعود لعصر
الطوفان . ثم دخلنا إلى ممر يبطنه خشب البلوط .. بسيط لكنه
يوحى لك فعلاً بعصور السحر الأولى . أخيراً أوقد مصباحاً من
الزيت وطلب منى أن أخذ راحتى .

حسن يا إليوت .. أنا رجل شديد المراس كما يقولون لكن
أعترف أن ما رأيته على جدران هذه الغرفة قد أفرغنى . إنها
لوحاته التي لم يكن يجسر على عرضها فى شارع (نيوبيرى) ..
كان محقاً عندما قال إنه أخذ راحته .. خذ كأساً فأتنا بحاجة لواحد !

لا جدوى من أن أصفها لك لأن الرعب الشنيع الكافر والبشاعة
المستعصية على التصديق يأتیان من لمسات تفوق قدرة الكلمات
على التصنيف . لم تكن هناك تعقيدات ولا خلفيات متحذقة .
الخلفيات كانت ساحات كنائس قديمة وغابات وصخوراً على
البحر وأنفاقاً .. مقبرة هضبة (كوب) القريبة من هذا الموضع .

الرعب الحقيقى كان يأتى من الأشكال الأمامية فى الصور لأن
براعته الأساسية كانت فى البورتريهات الشيطانية . لم تكن
وجوه بشر بالضبط .. كانت كائنات تمشى على قدمين ومنحنية
للأمام ولها طابع عام كلبى . كل هذه الكائنات كانت تأكل ..
لا تسألنى تأكل ماذا ..

كانوا يظهرون كمجموعات فى المقابر وتحت الأرض أو
متصارعين على الفرائس .. أحياناً تراهم يثبون من نوافذ
مفتوحة ليلاً ، أو يقعون على صدور النيام .. هناك لوحة
تظهرهم يلتفون حول ساحرة مشنوقة وجهها يشبه وجوههم .

إنها حية !.. صدقنى فلست صبيًا فى الثالثة . هذا الساحر الملعون قد أيقظ الشياطين على القماش وفرشاته كانت عصا سحرية . ناولنى هذا الإناء يا إبيوت !

كانت هناك لوحة اسمها (الدرس) .. فليرحمنى الله !.. تصور مجموعة من هذه الكائنات الكلبية تحيط بطفل ليلاً وتعلمه كيف يأكل مثلها !.. هنا بدأت أفهم .. هناك ارتباط بين وجوه الأطفال ووجوه هذه الكائنات الكلبية .. لقد رسم بيكمان حلقة الوصل .. هذه الكائنات كانت بشراً قبل هذا !

استبدال الأطفال ... هل تذكر الأسطورة التى تقول إن الأشرار يسرقون الأطفال الرضع ويضعون بذرتهم مكانهم فى المهد ؟..

ثم إنه حمل المصباح واقتادنى إلى غرفة أخرى ، وقد سره الفرع الذى بدأ يظهر على . فى الغرفة الثانية كانت لوحات أكثر إرغاباً ... هناك لوحة تظهر مجموعة من تلك الكائنات تسلك عبر مقبرة تحت الأرض إلى نفق (بابيلون ستريت) لتهاجم الناس الواقفين على الرصيف بانتظار المترو . هناك عدة لوحات لكائنات من هذه وقد تسلكت إلى قبو ، وهى تنتظر فى ركن مظلم أولئك الذين سينزلون الدرجات إلى ذلك القبو .

هناك رسم أثار ذعري بالذات وهو مجموعة من المسوخ تحيط بأحدها فى قبو تحت الأرض ، وهو يمسك بدليل سياحى لبوسطن فى يده ويقرأ بصوت عال . كانوا يضحكون بوحشية حتى إننى كدت أسمع ضحكاتهم .

كنت أشعر بفزع من بيكمان ، فلا بد أن الرجل تجرد من كل عطف أو حب للبشر حتى يروق له أن يرسم كل هذا التعذيب والرعب .. ثم إننى كنت خائفاً من روعة الأعمال .. هذه ليست رسوماً تمثل الشياطين بل هى الشياطين ذاتها .. والغريب أن الرجل لم يستخدم أساليب الغموض والإيحاء بل كان كل شيء واضحاً محدداً .. لم يحاول أن يرينا ضبابية الأحلام بل جعل كل شيء واقعياً دقيقاً ..

شيء واحد كان مؤكداً .. بيكمان كان بكل معنى الكلمة واقعياً دقيقاً علمياً ..

كان الآن يقتادنى لمرسمه ذاته وقد هبطنا لأسفل الدرجات الرطبة . أشار بالكشاف إلى فتحة فى الأرض وقال لى إن هذه تقود إلى ما كان يحكى عنه .. شبكة الأنفاق تحت الأرض .

نظرت للبئر ورحت أفكر فى الأهوال التى قد كانت تحويها ، وارتجفت .

كانت الغرفة مضاعة بمصباح من غاز الأسيتيلين ، وكانت اللوحات التى لم تنته بعد معلقة على الجدار مرعبة كمثلياتها المكتملات . كانت مرسومة بعناية رهيبة .. الرجل كان عظيمًا وأنا أقولها من جديد .. فقط لاحظت كاميرا كبيرة على المنضدة فأخبرنى أنه يصور بها الخلفيات التى يتخذها لرسومه .

ثم أزاح الستار عن لوحة جعلتنى أطلق صرخة رعب .. الصرخة الثانية لى هذه الليلة ، فقد كانت تظهر كيانًا جبارًا لا اسم له ، وله عينان حمراوان تلمعان ، وكان يمسك بيد مخربية بقايا رجل وهو يقضم رأسه كما يقضم الطفل قطعة حلوى . كان يجلس القرفصاء لكن كلما أمعنت النظر شعرت بأنه سوف يتخلى عن فريسته بحثًا عن فريسة أكثر دسامة . لكن لم تكن بشاعته ولا التفاصيل هى ما سبب ذعري .. لم تكن هى بالشئ الذى يدفع رجلًا مذعورًا للجنون .

كانت التقنية .. التقنية غير الطبيعية يا إليوت .. لم أر فى حياتى قط الحياة ذاتها وقد ذابت على قماش الرسم . المسخ كان هناك وكان يمزغ ويمزغ .. أعرف أن قوانين الطبيعة تجعل من المستحيل أن يرسم إنسان شيئًا كهذا من دون موديل . من دون لمحة لعالم سفلى لم يظفر بها أى بشرى لم يبيع نفسه للشيطان .

كانت هناك قطعة ورقية مثبتة بدبوس ضغط لجزء خال من القماش ، وكانت مجمدة .. خطر لى أنها صورة فوتوغرافية للخلفية التى رسم بيكمان اللوحة عليها . مدت يدي لها فتصلب بيكمان كأنه ضرب بالرصاص . كان يصغى لأصدا صرختى ، لكنه الآن انتفض تحت تأثير رعب جارف وأخرج مسدسًا وأمرنى بالصمت ، ثم خرج إلى القبو الرئيس وأغلق الباب خلفه .

أحسبني أصبت بالشلل للحظة . جربت أن أصغى مثله فسمعت صوت شئ ينسل فى مكان ما مع صرخات حادة لم أعرف اتجاهها . ثم جاءت قرعات جعلت جلدى يصير جلد إوزة .. قعقة مختلصة لا أعرف كيف أعبر عنها .. كأنها خشب ثقيل يسقط على حجر . خشب على حجر .. ماذا جعلنى هذا أفكر فيه ؟

عاد الصوت أعلى .. ثم دوت ضوضاء وصراخ مختلط من بيكمان .. ثم الصوت الذى يصم الأذان لدوى الرصاصات الست من مسدسه . كان يطلق كأنه مروض أسود يطلق الرصاص فى الهواء للتخويف .

من جديد الدوى .. ثم صوت باب يفتح ..

ظهر بيكمان على الباب والدخان يخرج من فوهة مسدسه وهو يشتد الفئران التى تعمر الجدران العتيقة .

- « لا أعرف ما تأكله الفئران يا ثيربر .. هذه الأنفاق تصل للمقبرة وعرين الساحرات .. لكن صراخك أزعجها ، ولكن كن حذراً فى هذه الأماكن العتيقة .. برغم أننى أعتقد أن هذه الفئران مهمة لعملى من حيث الجو واللون ..

- « كانت هذه يا إبيوت نهاية مغامرة الليل . لقد وعد بأن يرينى المكان وقد فعل ذلك ..

اقتادنى عبر شبكة المرات فى اتجاه آخر لأننا حين خرجنا كنا فى شارع نصف مألوف تحيط به بيوت عتيقة . هذا شارع (تشارتر) لكننى كنت مرتبكاً فلم أدر متى بلغناه . عدنا للمدينة عبر شارع (هانوفر) .. وتركنى بيكمان عند ركن (جوى) ولم أتكلم معه ثانية بعد ذلك ..

لم تخليت عنه ؟ .. لا تفقد صبرك .. انتظر حتى أطلب القهوة ..

لم تكن الرسوم هى السبب .. برغم أنها كانت كافية لجعله منبوذاً فى تسعة أعشار بيوت بوسطن .. أعتقد أنك تفهم الآن لماذا أكره الأنفاق والأقبية .. كان هذا شيئاً وجدته فى جيبي فى الصباح التالى . الورقة المجددة التى وجدتها على قماش اللوحة فى القبو . الورقة التى يبدو أننى دسستها لا شعورياً فى جيبي .. هذه هى القهوة .. خذها سوداء بلا سكر يا إبيوت .. صدقتى ..

هذه الورقة هى سبب مقاطعتى لبيكمان أعظم فنان عرفته . أشركيان عبر من حدود الحياة إلى حفر الأسطورة والجنون . ريد كان على حق .. لا بد أن بيكمان وجد طريقة يفتح بها البوابة المحرمة . لا فارق لأنه عاد إلى الظلمات التى يحبها ..

فلنشعل الشمعدان ..

لا تسألنى عن الشيء الذى أحرقتة .. لا تسألنى عن سبب هذه الأصوات التى زعم بيكمان أنها فئران . هناك أسرار تعود لماضى (سالم) وقد حكى (ماثر) عن الكثير . كنا نتسائل عن تلك الوجوه التى رسمها بيكمان فى لوحاته .

لم تكن تلك الورقة صورة تستعمل كخلفية للمشهد ، بل كانت تظهر ذلك المسخ الشيطانى الذى رسمه على القماش .. كان هذا هو الموديل الذى استعمله وكانت خلفية الصورة هى المرسوم الذى كنت فيه ..

لقد كانت صورة فوتوغرافية حقيقية يا إبيوت !

بحث إيرانون

في مدينة (تيلوث) الجرانيتية يمشى الشاب وقد توج رأسه بالكرّم ، وشعره الأصفر يلتمع بنبات المر ، وقد تمزق رداؤه الأرجواني من أشواك نبات (السيدراك) المزروع عبر الجسر الحجري العتيق . رجال (تيلوث) عابسون سمر البشرة يعيشون في بيوت مكعبة ، وقد سألوا الغريب من أين جاء وما اسمه ووجهته ، فأجاب الشاب :

- « أنا (إيرانون) .. جئت من (إيرا) وهي مدينة نائية أنكرها بصعوبة لكنني أريد أن أجدها ثانية . أنا أغنى الأغاني التي تعلمتها في المدينة البعيدة .. ثروتى هي الذكريات والأحلام التي أغنى لها في الحقائق ، حين يكون القمر حائياً وريح الشمال تداعب براعم اللوتس ..

- « عندما سمع رجال (تيلوث) هذا تهامسوا ؛ لأن أهل المدينة صارمون لا يضحكون ولا يغنون ، لكنهم أحياناً ينظرون لجبال (كارثيا) في الربيع ويفكرون في معارف (أوني) التي حكى عنها المسافرون . هكذا سمحوا للغريب بالبقاء والقاء أمام برج (ملين) برغم أنهم لم يحبوا لون ثيابه ولا الشباب في صوته الذهبي .

في المساء كان (إيرانون) يقف .. فقال رجل كفيف إنه رأى هالة فوق رأس المغنى . لكن معظم قوم (تيلوث) تشاءبوا وبعضهم نام لأن إيرانون لم يقل شيئاً مهماً سوى القاء لذكريته وأحلامه .

- « إيرا .. يا مدينة الرخام والفيروز .. ما أكثر محاسنك ! .. لكم أحببت إليك في (نيثرا) وشلالات (كرا) التي تجري عبر الوادى الأخضر ! .. فى تلك الرياض كان الصبية يصنعون الأكاليل لبعضهم ، وعند الغسق حلمت بحلم غريب تحت شجرة (إلباث) عندما رأيت تحتى أضواء المدينة ، و (نثرا) يتلوى ليعكس شريطاً من النجوم ..

- « فى المدينة كانت قصور من الرخام لها قباب ذهبية وجدران منقوشة وحدائق خضر ونوافير بلورية . كم نمت وحلمت بين الأزهار الشاحبة تحت الأشجار ، وأحياناً كنت أتسلق إلى القلعة وأنظر إلى إيرا تحتى .. مدينة الرخام والفيروز السحرية فى ثوب من اللهب الذهبى ..

- « لكم أفقدك يا إيرا ! .. كنت صغيراً عندما ذهبنا إلى المنفى ، لكن أبى كان ملكك ولسوف أعود لك ثانية .. بحثت عنك فى سبع أراضين ويوماً ما سأحكم رياضك وحدائقك وشوارعك وقصورك .. ولسوف أغنى للرجال الذين يعرفون عن أى شىء أغنى .. أنا إيرانون أميراً إيرا ..

- « فى هذه الليلة جعله الرجال يبيت فى الإسطبل ، وفى الصباح جاءه الحاكم وقال له إن عليه أن يذهب لآزوك الإسكافى ليعمل عنده ..

- « لكننى إيرانون المغنى .. لا أجيد مهنة الإسكافى .. »

- « الكل فى تيلوث يكدح .. هذا هو القانون .. »

قال إيرانون :

- « ولماذا يجب أن تكدحوا ؟ .. ألا يمكنكم أن تعيشوا حياة سعيدة ؟ .. تكدحون لتحياوا لكن أليست الحياة هى الجمال والغناء ؟ .. متى تجنون ثمار كدحكم ؟ .. الكد بلا أغان كرحلة طويلة بلا نهاية .. أليس الموت أكثر مسرة ؟ .. »

لكن الحاكم كان متجهماً ولم يفهم ما قيل .

- « أنت شاب غريب وأنا لا أحب صوتك ولا شكاك .. ما تقوله كفر لأن آلهة تيلوث قالت إن الكد طيب .. اذهب إلى (أزوك) الإسكافى أو غادر المدينة قبل الغروب .. »

هكذا مشى الفتى بين البيوت الحجرية الكثيرة يمتنى لو رأى شيئاً واحداً أخضر .. لم ير سوى العبوس ، لكنه جوار نهر (زورو) الراكد رأى صبيّاً يتأمل الماء بعينين حزينتين ، وقال له :

- « هل أنت ذلك الذى يتحدث عنه الحكام ويقولون إنه يبحث عن مدينة خيالية نائية ؟ .. أنا (رومنود) الذى ولد هنا لكنه لا يحسن التعامل .. أحن إلى رياض دافئة وأغان وجمال . خلف جبال (كارثيا) هناك مدينة (أووناي) التى حكى عنها المسافرون .

يقولون إنها جميلة ورهيبة .. تعال نغادر (تيلوث) معاً ونقصد تلك المدينة . وسوف أصغى لأغتيك ليلاً عندما تجلب النجوم الأحلام إلى الحالمين . ربما كانت تلك المدينة هي (إيرا) التي تبحث عنها . سوف يرحب بنا الناس هناك ولن يسخروا منا .. »

قال إيراثون :

- « أنا كنت أغنى في صباى لكن لم يصغ لى أحد .. كان الرجال يسخرون منى ويطردوننى .. جريت كل مكان لكنى أعرف أننى لن ألقى الترحاب إلا فى إيرا .. مدينة الرخام والفيروز التى حكمها أبى يوماً .. سنبحث عن إيرا برغم أننا قد نجدها فى أووناي ، وإن كنت أشك فى هذا لأن جمال إيرا خارق لا يمكن أن تصفه من دون أن تتبهر ، بينما عن أووناي يتهاوس راكبو الجمال فى حذر .. »

عند الغروب انطلق إيراثون ورومنود بين التلال الخضر والغابات الباردة . وكان الطريق وعراً غامضاً فلم يشعرا قط أنهما اقتربا من أووناي مدينة المعازف والرقص . وعند الغسق كان إيراثون يغنى لمغتنى مدينة (إيرا) بينما الصبى يصغى ، وأكلا الكثير من الفاكهة والفراولة ولم يشعرا بمرور الوقت لكن لابد أن زمناً طويلاً مضى . لم يعد رومنود الصغير صغيراً وإن ظل إيراثون كما كان .. ثم جاءت اللحظة التى بدا فيها أن رومنود أكبر سناً من إيراثون . برغم أنه كان صبيّاً صغيراً عندما جلس يتأمل الماء فى نهر زورو الراكد .

ذات ليلة عندما اكتمل القمر ، وصل المسافران إلى حافة صخرية تطل على أنوار أووناي التى لا تعد ولا تحصى . قال لهما الفلاحون إنهما قريبان ، وعرف إيراثون أن هذه ليست مدينته . كانت الأنوار هنا حادة بينما فى مدينته كانت الأضواء ناعمة كضوء القمر إذ تسرب من النافذة بينما أمه تغنى له وهو طفل . أووناي كانت مدينة معازف ورقص لذا انحدر إيراثون ورومنود بحثاً عن أناس يجلب لهم القاء والأحلام بعض السعادة . لكنهما وجدا فى المدينة أناساً يعربدون بين بيت وبيت ويطلون من النوافذ والشرفات . وقد وضعوا أكاليل الورود ، وكلهم يصغون لقاء إيراثون ويقذفونه بالورود .. هكذا شعر الرجل بأنه وجد أولئك الذين يفكرون ويشعرون مثله .

عندما بزغ الفجر نظر إيراثون حوله فى حسرة ؛ لأن قباب أووناي لم تكن ذهبية فى الشمس ، ورجال أووناي كانوا شاحبين من العريضة أثقلت الخمر عقولهم ، فلم يكونوا كرجال إيراثون . لكنهم أحبوا غناؤه لذا قرر أن يبقى معهم .

راح يغنى فى القصور على منصة بلورية فوق أرض من المرايا ، ومنحه الملك عباءة أرجوانية محلاة بالذهب وأساور من العاج وأسكنه فى غرفة مذهب على فراش من الخشب المنقوش ، له سقف من الحرير الموشى بالزهور .. هكذا عاش إيراثون فى أووناي مدينة المعازف والرقص ..

لا نعرف كم مكث إيرانون في أووناي ، لكن ذات يوم جاء الملك براقصين متوحشين من صحراء ليرانيان ، وعازف ناي داكن البشرة من درين في الشرق ، ومن ثم كف القوم عن إلقاء أزهارهم على إيرانون وراحوا يلقونها على الراقصين وعازف الناي .

الفتى رومنود كبر أكثر فأكثر واحمر وجهه من فرط شرب الخمر ، وصار يحلم أقل فأقل ، ولم يعد يهتم كثيراً بغناء إيرانون . وذات ليلة كان الفتى الذي ازداد سمته يلتهم طعام مأدبة عندما راح يشفق ويبحث عن الهواء ، ثم مات مختنقاً جوار إيرانون الذي كان يغنى في حزن .

بعد ما بكى إيرانون جوار قبر رومنود ، ألقى عليه أغصان الأشجار التي كان يحبها ، ثم نزع ثيابه التي منحها له الملك وغادر مدينة أووناي .. مدينة المعازف والرقص ..

في ضوء الغروب مضى إيرانون يبحث عن مدينته ورجال يفهمون أغانيه وأحلامه . ظل شاباً للأبد وهو يغنى لإيرا بهجة الماضي وحلم الغد .

ذات ليلة بلغ كوخاً عتيقاً لراع يحرس قطيعاً ، على منحدر صخري يطل على مستنقع رمال متحركة . قال له إيرانون :

- « هلا أخبرتني عن مكان إيرا .. مدينة الرخام والفيروز .. حيث يجري نثرا وحيث تغنى شلالات نهر كرا للوديان الخضر ؟ .. »

سمع الراعي هذا فنظر بدهشة لإيرانون كأنه يتذكر شيئاً ثم هز رأسه وقال :

- « أيها الغريب .. أنا قد سمعت اسم إيرا والأسماء الأخرى التي ذكرتها ، لكنها تأتيني عبر ذكريات قصية .. سمعتها في شبابي من شفتي صديق لعب .. ابن متسول اعتاد أن يؤلف قصصاً خرافية عن القمر وحكايات الأرض الغربية . كان يحسب نفسه ابن الملك برغم أننا كنا نعرفه منذ ولد .. كان وسيماً لكنه مليء بالحماسة والغرابة . وقد هرب في صباتنا كي يجد من يصغون لقصصه وأحلامه . كان يحكى عن أرض لم تكن ولا يمكن أن تكون ! .. كان يحكى عن إيرا ونهر كرا . كان يحكى أنه عاش هناك كأمير برغم أننا عرفناه منذ ولد ولم تكن هناك قط مدينة اسمها إيرا .. لا وجود لها إلا في أحلام صديق طفولتي إيرانون .. »

وفي ضوء الشفق إذ ظهرت النجوم واحدة تلو أخرى ، مشى نحو الرمال المتحركة رجل مسن يلبس ثياباً رثة أرجوانية ، وعلى رأسه تاج من أوراق الكرم ، وهو ينظر أمامه كأنما يتأمل قباب إيرا الذهبية ، حيث يفهمون الأحلام . في تلك الليلة شهد العالم القديم مصرع الجمال والشباب .

موسيقا إريك زان

لقد قمت بفحص خرائط المدينة بعناية عظيمة ، لكنى لم أجد شارع (دوسيه) ثانية . لم تكن الخرائط حديثة فحسب لأننى أعرف أن الأسماء تتغير . لقد بحثت فى كل التاريخ القديم للمكان وبحثت فى كل بقعة عن هذا الشارع . برغم هذا تظل الحقيقة المحرجة هى أننى غير قادر على إيجاد البيت ولا الشارع الذى سمعت فيه فى الأشهر الأخيرة من حياتى الفقيرة كدارس ميتافيزيقا بالجامعة موسيقا (إريك زان) .

كون ذاكرتى محطمة فهذا شئ لا يدهشنى .. إن صحتى العقلية والجسدية قد تأذت كثيرا أثناء إقامتى فى شارع (دوسيه) . لكنى ما زلت مرتبكا لأننى نسيت المكان الذى لم يكن يبعد عن الجامعة أكثر من نصف ساعة من المشى وكان مميزا .. لكنى لم ألق قط من رأى شارع (دوسيه) .

يقع الشارع عبر نهر أسود المياه تحيط به مستودعات بنيت من قرميد ، ويعبره جسر من الحجر الأسود . كان النهر أسود دائما كأن دخان المصانع القريبة يحجب عنه الشمس للأبد . وكانت مياه النهر خبيثة الرائحة وأنا أعتمد على هذه الرائحة فى العثور عليه يوما ما . أخيرا تصل لممر مبلط بحجر الإسكافى يقودك إلى شارع (دوسيه) .

علق هؤلاء القوم فى ذاكرتى بسبب تقدمهم الواضح فى السن .
لا أعرف لماذا عشت فى هذا الشارع لكنها كانت فترة قاسية فى
حياتى تنقلت فيها بين عدة مساكن بسبب إفلاسى . حتى وصلت
إلى هذا المسكن الذى يملكه (بلاندو) المشلول . كان ثالث بيت
من بداية الشارع وأعلى البنايات هناك .

غرفتى كانت فى الطابق الخامس وكانت الوحيدة المسكونة
لأن البناية كانت خالية . ليلة وصولى سمعت موسيقا من العلية
فوقى وسألت عنها (بلاندو) العجوز فى اليوم التالى . قال لى
إن العازف هو ألماتى أخرس يعزف الكمان يوقع باسم (إريك
زان) .. قال لى إن هواية (زان) فى العزف بعد عودته من
الأوركسترا ليلاً هى سبب اختيار هذه الغرفة له .

رحت أسمع زان كل ليلة ، وبرغم أنه كان يمنعنى من النوم ،
فإن غرابية موسيقاه أبهرتنى .. لم تكن تمت بصلة لأية موسيقا
سمعتها من قبل . قررت أنه عازف شديد الأصالة .. كلما
أصغيت انبهرت وبعد أسبوع قررت أن أتعرف به .

ذات ليلة كان عائداً من العمل فاستوقفته وقلت له إننى أريد
أن أعرفه وأكون معه وهو يعزف . كان رجلاً صغير الحجم
متواضع الثياب أزرق العينين له وجه غريب ورأس أصلع . وبدا
كأنه اندهش وغضب لكلماتى . فى النهاية تراجع أمام مودتى

الواضحة . وأشار لى أن أتبعه إلى العلية . كانت غرفته فى
الجهة الغربية المطلّة على الشارع ، وكانت غرفته واسعة جداً ..
بدت كذلك بسبب خلوها من الأثاث . سرير معدنى وحوض غسيل
وثلاثة مقاعد ومكتبة عملاقة . كان الغبار وخيوط العنكبوت فى
كل مكان مما جعل المكان يبدو غير مسكون . من الواضح أن
عالم الجمال الذى يراه موجود فى خياله فقط .

أغلق الباب وأشعل شمعة وأخرج الكمان من علبة المتأكلة
وجلس على مقعد غير مريح . لم ينظر لنوتة وإنما راح يعزف
من الذاكرة .. سحرنى لمدة ساعة بمقطوعات لم أسمعها من قبل
ومن المستحيل أن يصفها من ليس مختصاً ..

دندنت لنفسى هذه الألحان مراراً فيما بعد ، وعندما انتهى
عزفه طلبت منه أن يكرر بعض المقاطع فوضع القوس جانباً
وارتسم على وجهه ذلك المزيج من الخوف والضيق الذى رأيته
على وجهه أول مرة . حاولت أن أصفر بعض الألحان كما
سمعتها منه أمس ، لكن يده العظمية امتدت فى حزم إلى فمى
لتمنعنى من تقليد هذه الألحان .

وهنا أظهر علامة أخرى على غرابية أطواره عندما اختلس
نظرة إلى النافذة كأنه يخشى قدوم متطفل يتوقعه ، وهو تصرف

غريب لأن العلية تقع فوق مستوى كل البنايات المحيطة بها وهذه النافذة تطل على الشارع المنحدر .

شعرت برغبة في أن ألقى نظرة من تلك النافذة لأرى تلك الأسطح التي يغمرها ضوء القمر ، والتي لا يبصرها أحد سوى هذا الساكن . اتجهت للنافذة وكدت أجذب الستائر عديمة الشكل ، لولا أن لحق بى الساكن الأخرس بغضب مذعور أكثر مما سبق ، وهذه المرة كان يشير للباب فى عصبية متأهبا لجرى بيديه لو اقتضى الأمر .

تضايقت منه فطلبت منه أن يتركنى وقلت إننى سأنصرف . استرخت قبضتى ولاحظت أشمنزلى فبدأ غضبه يتلاشى . ثم أشار لى إلى مقعد كى أجلس وكتب لى كلمات على ورقة بفرنسية رديئة جديرة بأجنبى .

كانت الورقة التى ناولها لى تحمل عبارات طلب العفو . كتب إنه وحيد عجوز تنتابه مخاوف غامضة . لقد أحب إنصاتى لموسيقاه ورجا أن أعود له ولا أبالى بغرابة أطواره . لكنه لا يطيق أن يسمع ألقائه من شخص آخر ولا يطيق أن يلمس أى شخص شيئا فى غرفته .

طلب منى أن أطلب من (بلاندو) أن ينقلنى لغرفة فى طابق تحت هذا كى لا يضايقتنى صوت العزف ليلاً ، وقال إنه سيدفع أى فارق فى الإيجار .

شعرت بتعاطف مع الرجل ، فهو مرهق بمخاوف نفسية مثلى ، وقد علمتنى دراستى أن أتسامح .

جاء صوت من خارج الغرفة فلا بد أن المصراع تحرك مع هواء الليل ، لذا أجفلت لكنه أجفل مثلى . صافحته وانصرفت فى النهاية .

فى اليوم التالى أعطانى (بلاندو) غرفة أعلى سعراً فى الطابق الثالث ، بين غرفتى مراب عجوز ومنجد . لم يكن هناك سكان فى الطابق الرابع .

لم يطلب منى (زان) أن أزوره ثانية ، وحينما زرته لم يبد مستريحاً .. كان هذا فى الليل دوماً لأنه ينام نهاراً . لم يزد إعجابى به برغم أننى كنت مفتوناً بالcliffe والموسيقا الغربية . كنت أريد أن ألقى نظرة من تلك النافذة ، لكنى تسلفت مرة إلى هناك أثناء ذهابه للأوركسترا ، لكن بابه كان مغلقاً .

ما نجحت فيه كان سماع العزف الليلى لهذا العجوز . فى البداية كنت أصعد على أطراف أصابعى للطابق الخامس ثم تجرأت على الصعود للcliffe . هناك خلف الباب المغلق الذى تم سد ثقب مفتاحه ، كنت أسمع موسيقا تفعمنى رعباً غير محدد .. ليس لأن الأصوات كانت مزعجة فهى لم تكن كذلك ، لكن النغمات كانت توحى بشيء غير أرضى وأحياناً كانت تتخذ شكل سيمفونية لا أتصور أنها تصدر عن عازف واحد .

مرت الأسابيع وازداد العزف توحشًا بينما اكتسب العازف جموحًا غريبًا .. لم يعد يسمح لى بالدخول فى أى وقت ، وكان يتجنبنى إذا التقينا على الدرج .

ذات ليلة تحول صوت الكمان إلى جحيم من الأصوات جعلنى أشك فى عقلى .. ولولا يقينى من أن هذا الرعب حقيقى .. لولا سماعى خلف الباب تلك الصرخة المفزعة التى لا تخرج إلا من فم أخرس فى أعنف لحظات الرعب . طرقت الباب مرارًا بلا جواب ..

مرت لحظات ثم سمعت العجوز البائس يحاول النهوض من على الأرض .. تصورت أنه فقد الوعي واستعاده فواصلت الدق . سمعته يغلق مصراعى النافذة ثم يتجه للباب فيفتحه . هذه المرة بدا راضيًا عن مجيئى وتعلق بمعطفى كما يتعلق طفل بأمه .

جعلنى أدخل وأجلس على مقعد وجلس على آخر ، وراح يهز رأسه لبعض الوقت كأنه يصغى . ثم اتجه إلى المنضدة وكتب مذكرة ناولها لى . كانت المذكرة تتوسل لى أن أبقى حيث أنا إلى أن يكتب بالألمانية تقريرًا كاملاً عن كل الغرائب والأهوال التى تحدث به .

انتظرت فراح قلمه يجرى على الورق .

ربما مرت ساعة وأنا جالس أنتظر ، بينما الموسيقار العجوز يكتب ورقة تلو أخرى .. من حين لآخر ينظر للستار والنافذة .. خيل لى إننى أسمع صوتًا بعيدًا أقرب إلى عازف فى بيت بعيد بالخارج . كان تأثير هذا على زان مخيفًا لأنه نهض وأمسك بالكمان وبدأ يعزف أعنف عزف سمعته منه .

من العسير أن أصف عزفه فى تلك الليلة ؛ لأننى كنت أرى وجهه وأدرك أنه يعزف من فرط الرعب . كان يحاول عمل جلبة كأنه يبعد شيئًا ما ... ازداد العزف جنونًا لكنه احتفظ بالعبقريّة التى عرفتھا فى كل ألحان هذا الرجل . ميزت الطابع العام .. إنها رقصة مجرية عنيفة معروفة فى المسارح وللمرة الأولى أسمع زان يعزف لحنا لعازف آخر .

أعلى فأعلى .. أعنف فأعنف .. الكمان يصرخ . كان العازف يتصبب عرقًا وراح يتلوى كقرد . فى عنفه كنت أرى ظلالًا للساتير وعبدة باخوس يرقصون فى هوة عميقة وسط الدخان والبرق .

بدأ المصراع يهتز مع ريح الليل العاوية كأنه يتجاوب مع العزف المجنون . الكمان يبعث نغمات لا أصدق أن الكمان قادر على بعثها . راح المصراع يهتز بقوة ويضرب النافذة . ثم تهشم الزجاج فاندفعت الريح الباردة للداخل وطار الأوراق على

المنضدة التى كان زان يكتب ذكرياته عليها . نظرت لزان فوجدت أنه تقريباً غائب عن الوعي .. عيناه الزرقاوان جاحظتان زجاجيتان لا تريان ، والعزف صار طقساً عريداً لا يستطيع قلم أن يصفه .

فجأة حمل الأوراق وهرع إلى النافذة وفى حيرة راقبت الأوراق تطير . هنا تذكرت رغبتى فى النظر من هذه النافذة . كان الظلام دامساً لكن أضواء المدينة كانت تتوهج وتوقعت أن أراها وسط الريح والمطر .

لكن حينما نظرت من النافذة .. نظرت بينما الشموع تهتز والكمان المجنون يعوى بريح المساء . لم أر مدينة .. لا أضواء ولا شوارع .. فقط سواد فضاء بلا نهاية .. فضاء لا يشبه أى شىء على الأرض ..

وإذ وقفت أنظر فى رعب أطفأ الهواء ضوء الشموع تاركاً إياى واقفاً فى الظلام المتوحش الكثيف والجحيم أمامى . وجنون الكمان من خلفى .

تراجعت فى الظلام فاصطدمت بالمنضدة وأسقطت مقعداً ..

لأنقذ نفسى وزان يجب أن أحاول مهما كانت القوى التى أجابهها .. يخيل لى إن شيئاً بارداً اصطدم بى فصرخت لكن صرختى لم تتغلب على صوت الكمان . وفجأة من الظلام ضربنى القوس المجنون .. عرفت أننى بقرب العازف ..

مددت يدي لمقعد زان وهزرت كتفه . لم يستجب .. واستمر الكمان فى العواء ..

مددت يدي لرأسه لأوقف حركته الميكانيكية وصرخت فيه كى نفر معاً من رعب الظلام .. لكنه لم يرد ولم يخفف من جنون موسيقاه .

عندما لمست يدي أنه ارتجفت .. لم أعرف السبب .. لم أعرف حتى لمست وجهه فأدركت أنه بارد كالثلج متصلب لا يتنفس . بمعجزة ما وجدت الباب والمزلاج فاندفعت فاراً من هذا الشىء زجاجى العينين فى الظلام .. من عواء هذا الكمان الملعون الذى يزداد جنوناً ..

جريت عبر الدرجات التى لا نهاية لها ، راكضاً نحو الشوارع الضيقة . ألهث عبر الجسر الأسود عابراً إلى الشوارع الواسعة الصحية التى أعرفها . لم تكن هناك ريح .. كان القمر مكتملاً والمدينة كلها تتوهج بالضوء .

برغم بحثى المدقق لم أستطع قط أن أجد شارع (دوسيه) من حينها .. لكننى لست نادماً على هذا ولا على فقدان تلك الأوراق التى كان بوسعها أن تفسر لى لغز موسيقا (إريك زان) (*) .

(*) دخل تعبير (موسيقا إريك زان) الوجدان الجمعى الغربى ، لدرجة أن هناك عدة فرق تقدم موسيقا مجنونة واختارت لنفسها ذات الاسم . يمكنك تحميل فيلم عرائس ألماني طريف قصير يحكى القصة ذاتها من الموقع :

العجوز المخيف

كانت تلك فكرة (أنجيلو ريتشى) و (جو تزانك) و (مانويل سيلفا) أن يزوروا العجوز المخيف . يعيش هذا العجوز وحيداً فى بيت عتيق فى (ووتر ستريت) قرب البحر ، وهو مشهور بأنه ثرى وضعيف ، وهذا ما يشكل إغراء شديداً لمن يمارسون المهنة التى يمارسها هؤلاء السادة . إن مهنة هؤلاء القوم ليست أكثر شرفاً من السرقة .

يقول سكان كنزبورت ويعتقدون فى أشياء كثيرة بصدد العجوز المخيف .. أشياء تبقى فى أمان من اهتمام السادة أمثال ريتشى ورفاقه ، وبرغم أن الكل كان موقناً أنه يخفى كنزاً عظيم القيمة فى مسكنه البالى المرعب .

الواقع أنه رجل غريب الأطوار ويقال إنه كان قبطاناً لسفينة شراعية سريعة خاصة بشركة الهند الشرقية ، وهو مسن بحيث لا يذكر أحد أنه كان شاباً ، صموت بحيث لا يعرف أحد اسمه .

فى فناء داره تجد مجموعة غريبة من الحجارة العملاقة مرتبة ومطلية بشكل غريب ، حتى تشبه أصنام المعابد الشرقية . هذه المجموعة تثير رعب الصبية الذين يضايقون العجوز أو يهوون تحطيم نوافذ داره بقذائفهم . هناك أشياء أخرى تخيف الأكبر سناً الذين يختلسون البصر عبر النوافذ .

يقول هؤلاء إن هناك منضدة عليها زجاجات كثيرة .. تتلى فيها قطعة رصاص كالبندول من خيط . يقولون إن الرجل يكلم هذه الزجاجات ويطلق عليها أسماء مثل (جاك) و (الوجه ذو الندبة) و (توم الطويل) و (جو الأسباني) و (بيترز) و (الرفيق اليس) . قالوا إنه إذ يكلم الزجاجات يهتز الخيط كأنه يجيب .

لم يكن (أنجيلو ريتشى) و (جو تزانك) و (ماتويل سيلفا) يمتون بصلة لدماء نيو إنجلند بل كانوا دماء جديدة وافدة .. وقد رأوا أن الرجل العجوز مقعد تقريباً لا يمشى من دون عصاه ، ويداه ترتجفان بشكل مثير للشفقة . بالفعل شعروا بنوع من الأسف وهم يقصدون دار العجوز الذى تعوى الكلاب عندما تراه . لكن العمل هو العمل .. هناك إغراء شديد لدى أى لص فى رجل عجوز واهن بلا حساب فى المصرف ، ويدفع ما عليه من مال فى المتجر بنقود إسبانية ذهبية صكت منذ قرنين .

اختار السادة (أنجيلو ريتشى) و (جو تزانك) و (ماتويل سيلفا) ليلة 11 إبريل للزيارة . كان على (ريتشى) و (سيلفا) إجراء المقابلة مع العجوز بينما السيد (تزانك) ينتظرهما بسيارة فى شيب ستريت عند الباب الخلفى لدار مضيفهما . فلم يكن أحدهم يرغب فى لقاء غير ضرورى وغير متوقع مع الشرطة .

تحرك السادة منفصلين كى يمنعوا أية شكوك شريرة بصدد نواياهم . التقى ريتشى وسيلفا فى ووتر ستريت عند باب العجوز الأمامى . لم يحبا كثيراً ضوء القمر الساطع على الصخور لكن كانت لديهما أشياء أهم . كانا يعرفان أنه من الصعب جعل الرجل يتكلم عن ذهبه المخبأ لأن القباطنة المسنين أميل للعناد والتكتم . لكنه كان مسناً واهناً وهما اثنان . والسيدان متمرسان فى فن جعل الأشخاص ثرثارين ، ومن السهل أن تكتم صرخات رجل ضعيف عجوز . مشياً نحو النافذة وأصغياً للرجل وهو يكلم إحدى زجاجاته .

ثبنا الأفتنة ودقا على الباب البلوط فى أدب .

بدا الانتظار أطول من اللازم بالنسبة لمستتر تزانك وهو يعبث فى السيارة التى تقف عند باب السيد العجوز الخلفى . كان رفيق القلب نوعاً ولم يحب الصرخات المريعة التى دوت فى المنزل المهجور عندما حان وقت العملية . ألم يطلب من رفيقيه أن يكونا رقيقين قدر الإمكان مع القبطان العجوز ؟

راح يراقب البوابة المصنوعة من خشب البلوط وسط الجدار الصخرى . أحياناً كان ينظر لساعته متسائلاً عن سبب التأخير . هل مات العجوز قبل أن يكشف عن مكان الكنز ؟

لم يحب الانتظار طويلاً فى الظلام .. هنا سمع صوت طرقات داخل البوابة وسمع من يعبث فى المزلاج الصدى برفق . ثم رأى الباب الثقيل ينفتح .

ضيق عينيه ليرى ما جلبه زميلاه من ذلك البيت الشقى ، لكنه حين دقق النظر لم ير ما انتظره .. لم يكن زميلاه هناك . فقط العجوز المخيف يتوكأ على عصاه ويبتسم فى شر . لم يكن قد لاحظ لون عيني الرجل من قبل ، وقد أدرك الآن أنهما صفراوان .

إن الأمور البسيطة تحدث إثارة عظمى فى المدن الصغيرة ، ولهذا راح القوم يتكلمون طيلة الربيع والصيف عن الأجساد الثلاثة مجهولة الهوية والممزقة بالسيف ، والتي هشمته مئات الأحذية ذات الرقبة ، والتي ألقى بها المد على الشط ..

تكلم الناس عن أشياء صغيرة مثل سيارة مهجورة فى شيب ستريت ، وصرخات غير آدمية كأنها صدرت عن طيور بحرية ، والتي سمعها بعض الناس ليلاً . لكن لم يتكلم أحد قط عن الحادث مع الرجل العجوز المخيف . كان بطبعه متحفظاً وعندما يشيب المرء ويضعف فإن تحفظه يزداد . كما أن قبطاناً عجوزاً كهذا لابد وأنه رأى أشياء أكثر بشاعة فى شبابه الذى لم يعد يتذكره .

المقبرة

عندما أحكى الظروف التى قادتني للاحتجاز فى ملجأ المجانين هذا ، فإننى أفهم أن وضعى الحالى سوف يجعل الناس يشكون فى صحة قصتى .

إنها حقيقة تعسة أن أكثر البشر محدودو البصيرة العقلية بحيث لا يمكنهم الحكم على هذه الظواهر بصبر وذكاء . الظواهر التى لا تراها وتشعر بها إلا القلة من مفرطى الحساسية النفسية . الرجال الأكثر ثقافة يعرفون أنه لا يوجد فاصل واضح بين الحقيقى وغير الحقيقى ، وأن الأشياء لا تبدو هكذا إلا عن طريق وعينا .. لكن مادية الأغلبية تعتبر تلك الوهجات من البصيرة التى تخترق الحجب جنونا .

اسمى (جيرفاس دودلى) .. كنت حالماً وصاحب رؤى منذ طفولتى . كنت ثرياً أكثر من حاجتى ولم أكن ذا مزاج يسمح بالدراسة النظامية والاندماج فى الحياة الاجتماعية .

قد أمضيت صباى ومراهقتى مع كتب قديمة شبه مجهولة وأنا أجوب الحقول قرب مسكنى . يخيلى لى أننى لم أر أو أقرأ فى تلك الكتب ما كان أقرانى يرون ويقرءون . لكن على ألا أصرح أكثر لأن الكلام الصريح قد يعيد الشك فى قواى العقلية كما أسمع رفاقى . يكفينى أن أقص الأحداث ولا أحاول تفسيرها .

قلت إنى عشت بعيداً عن العالم المرئى ، لكن لم أقل إننى عشت وحدى .. لا بشرى يقدر على هذا ..

جوار بيتى يوجد واد مشجر اعتدت أن أمضى أكثر وقتى فى ظلماته ، أفكر وأحلم . على منحدراته مشيت خطواتى الأولى طفلاً ونسجت أحلام صباى . رأيت حوريات الأشجار وراقبت رقصهن المحموم تحت أشعة القمر الخافتة . لكن لن أتكلم عن هذا الآن بل عن القبر المتوحد فى ظلمات الأشجار ، وهو قبر (هيدز) المهجور ، أسرة قديمة عريقة غاب آخر أحفادها فى هذه الظلام قبل مولدى بعقود .

القبر الذى أتكلم عنه من جرانيت قديم زال لونه بفعل الأبخرة والرطوبة عبر أجيال . حفر فى جانب الجبل بحيث لا تراه إلا من المدخل . الباب قطعة حجر تتصل بمفصلات صدئة وقد أبقي نصف مفتوح فى موضعه بجنازير حديدية ضخمة كما هى العادة المريضة منذ نصف قرن . هناك عاصفة دمرت قمة هذا الضريح منذ عقود ، ولهذا يتكلم الناس فى هيبة عن (غضبة السماء) .. مما أثار فضولى ولهفتى لمعرفة هذا المكان .

حينما دفن آخر آل (هيدز) هنا جاءت بقاياها من مكان بعيد ، فلم يبق من يضع أزهاراً على القبر ولا يجسر أحد على اجتياز الظلال التى تحيط بهذه الصخور . لن أنسى عصر ذلك اليوم الذى وجدت فيه بيت الموت هذا . كان هذا فى منتصف الصيف عندما تتحول الغابات إلى كتلة متجانسة حية من اللون الأخضر . فى هذا المناخ يفقد العقل معاييرهِ ويصير المكان والزمان بلا معنى .

كنت أمضى يومي في رياض الوادي الغامضة ، وأتجاوز مع أشياء لم أذكر اسمها . وكنت أمشي بين صفيين من الأشجار عندما وجدت نفسي أمام باب القبو . لم أعرف ما وجدته .. كانت هناك مساحات من الجرانيت ونقوش جنائزية فوق القوس . لكنني لم أشعر بأي خوف أو توجس وأنا أرمق هذا المدخل بل الفضول فقط . ثمّة نداء خفى جعلني أود أن أجتاز هذا المدخل برغم الجنازير التي تغلقه . حاولت أن أحشر جسدي عبر التجويف لكن لم أنجح . وأقسمت وأنا عائد لداري أنني سأجد طريقة لاجتياز المدخل إلى الظلمات التي تدعوني لها . إن الطبيب ذا اللحية الرمادية الذي يتردد على غرفتي يوميًا ، قال للزوار إن هذا القرار يعكس جنوناً أحاديًا قاسيًا لكنني سأترك القرار النهائي لقرائي .

في الفترة التالية رحلت أحاول أن أجتاز هذا المدخل وإن لم أخبر أحدًا بنواياي . لم يدهشني أن أعرف طبيعة اكتشافي برغم أنني كنت طفلًا .

لقد كنت أقف أمام هذا الباب عدة ساعات كل يوم . أرى شيئًا يبدو كدرجات رطبة تقود لأسفل وكانت رائحة المكان تنفرني لكنها تسحرني . شعرت بأنني أعرفه من قبل في زمن سحيق ..

عامًا بعد عام كنت أرمق القبر ، وفي هذا الوقت قرأت أسطورة (ثيديوس) وعن الحجر العملاق الذي تحته كان البطل

الطفل سيجد قدره لو أنه استطاع أن يرفع الحجر . هذا جعل صبري يهدأ فقلت لنفسي إنني سأنتظر حتى أكتسب قوة وعبقريّة تجعلني أفتح الباب بسهولة .

ازدادت الفكرة إغراء بعد ما عرفت أن هناك صلة قرابة بعيدة واهية بين أمي وتلك الأسرة المنقرضة . بما أنني آخر نسل أسرتي فهذا يعني أنني آخر من يحمل دم هذه الأسرة المنقرضة . بدأت أشعر كأن القبر قبري .. بدأت أحلم بالمرور عبر هذه الدرجات الزلقة في الظلام . وصنعت تعريشة من الأشجار فوق المكان .. وصار هذا المكان مكاني والباب المغلق بابي .. هنا سأمضي الدهر راقداً أحلم بأحلام غريبة .

كانت أولى ليالي الرؤيا حارة رطبية . لا بد أنني غفوت من التعب لأنني كنت شبه متيقظ عندما سمعت الأصوات . أخشى أن أتكلم عن الأصوات واللهجات .. لن أتكلم عن نوعيتها لكنها كانت غريبة في المصطلحات والهجاء والنطق .. بدا لي كأنني أسمع هنا كل لهجة عرفتتها (نيو إنجلند) منذ عصور المستعمرين البيوريتانيين حتى اللغة السائدة منذ خمسين عامًا .

هنا لاحظت ظاهرة غريبة أخرى .. ظاهرة فريدة بحيث لا أعرف كيف أصفها .. خيل لي عندما نهضت أن ضوءًا كان في الضريح وقد أطفأه أحدهم بسرعة .. لا أحسب الذعر غلبني لكنني

أيقنت أنني تغيرت كثيراً في تلك الليلة . عندما عدت لداري اتجهت للصندوق العتيق في العلية حيث وجدت المفتاح .. المفتاح الذي استطعت به في اليوم التالي فتح الحاجز الذي حاولت اجتيازه طويلاً بلا جدوى .

كنت في ضوء العصر الناعم عندما دخلت القبو المنسي . كنت مسحوراً وقلبي يدق بقوة .. أغلقت الباب خلفي ونزلت في الدرج على ضوء شمعتي الوحيدة ، وخيل لي أنني أعرف الطريق . وبرغم أن الشمعة راحت تفرقع بفعل أبخرة المكان الكريهة ، فقد شعرت بأنني في داري . من حولي كانت هناك ألواح عليها توابيت أو بقايا توابيت . بعضها كان مغلقاً وسليماً وبعضها كاد يتلاشى .. تساقطت المقابض الفضية وسط التراب ..

على لوحة رأيت اسم السير (جيفري هايد) الذي جاء من (سوسكس) عام 1640 ومات هنا بعد أعوام قليلة . ورأيت تابوتاً خالياً مفتوحاً بلا ساكن قرأت الاسم المكتوب عليه فجعلني أشعر بمزيج من رعب وطرافة ، ولسبب لا أفهمه وجدت نفسي أتمدد في هذا التابوت .

في ضوء الفجر غادرت القبو وأغلقت السلسلة خلفي .. لم أعد شاباً برغم أن 21 شتاء لا أكثر قد جمدت جسدي ، وكان الفلاحون المبكرون ينظرون لي في دهشة . لم أظهر أمام أهلي إلا بعد نوم طويل منعش .

رحت أتسلق القبر كل ليلة لأرى وأسمع وأفعل أشياء لا أنكرها .. كان كلامي أول ما بدأت تطرأ عليه التغيرات الجديدة .. وقد لاحظ الكثيرون كيف صارت لغتي عتيقة تستعمل كلمات منسية . ثم بدأ نوع من التهور والجرأة يطغى على سلوكي . أظهرت معرفة واسعة ليست كذلك الرهينة التي عشتها في شبابي . ورحت أكسو الصفحات الخالية في بدايات ونهايات كتبي بأفكار بارعة لها طابع القرن الثامن عشر الأدبي .

ذات صباح على الإفطار كدت أسبب كارثة إذ رحمت أتكلم بمرح باخوسي الطابع من القرن الثامن عشر .. قلت شيئاً كهذا :

هلموا يا رفاقي ومعكم أباريق الجعة

واشربوا للحاضر قبل أن يولي

كوموا اللحم في الصحاف

فالراحة لا يجلبها إلا الطعام والراح ..

افعموا الأقداح ..

قبل أن يفنى الصباح

عندما تفنون ، لن تشربوا في صحة مليكم ولا حسناتكم ..

(أناكريون) كان أنفه أحمر

كذا يزعمون ..

لكن ما الأنف الأحمر وأنت سعيد مفتون ؟

أفضل أن أكون أحمر وأبقى بينكم

على أن أكون أبيض كالسوسن وميتاً

فترفقى يا حسناء

اضحكوا !

فتحت سنة أقدام من التراب لن يكون الضحك سهلاً ..

فى هذا الوقت اكتسبت الخوف من الرعود والعواصف .. لم أكن أبالى بهذه من قبل لكنى صرت أتوارى فى ركن قصى من البيت متى قررت السماء ممارسة ألعابها الكهربائية . كنت أتخيل ذلك البيت الذى احترق وكيف كان فى عظمتة قبل العاصفة .

فى النهاية جاءت اللحظة التى خفت منها طويلاً . لقد زعر أبواى لاختفاء ابنهما المتكرر وبدأا يتجسسان على مما كاد يسبب كارثة . لم أحك لأحد عن زيارتى للمقبرة ، وقد أبقيت سرى منذ الصبا ، لكنى الآن صرت مجبراً على أن أكون حذراً أثناء مشيى فى الغابة حتى لا أترك أى أثر يدل على .

كنت أبقى المفتاح معلقاً إلى صدرى بخيط . ولم آخذ معى أى شىء وجدته بين جدران الضريح .

ذات صباح غادرت المقبرة ووضعت السلسلة ویدی ترتجف ، هنا وجدت من يراقبنى بين الأشجار .

لقد دنت النهاية وعرفوا مكان تكعيبتى وعرفوا سبب جولاتى الليلة .

لم يبادرنى بالكلام ، لذا هرعت للبيت كى أسبق بمعرفة ما سيقوله هذا الرجل لأبى المرهق القلق . هل سيعرف العالم كله قصة تسلى للمقبرة ؟ .. تصور دهشتى حينما أسمع الجاسوس يخبر والدى همساً حذراً أننى قضيت الليل جوار باب المقبرة ، وعينائى اللتان غلفهما النعاس لا تبرحان المدخل الموارب ..

بأية معجزة تم تضليل هذا المراقب ؟ ..

صرت الآن مقتنعا بأن قوة خارقة للطبيعة قد حمتنى ، وأكسبني هذا الخاطر جرأة وبدأت أستعيد شجاعتى وأعود للقبو شاعراً بأن أحداً لن يرانى .

ظلت لأسبوع غارقاً فى تلك المتعة عندما حدث الشىء ..

وهكذا كتب على أن أنتقل لعالم من الأسف والرتابة ..

ما كان يجب أن أجرب فى تلك الليلة ؛ لأن الرعد كان بين السحب وهناك تألق فوسفورى شيطانى ينبعث من المستنقع فى أعماق الغابة . كذا كان نداء الموتى مختلفاً .

عندما خرجت من الغابة قرب الخرائب رأيت فى ضوء القمر الضبابى شيئاً توقعته دوماً بشكل غامض . البيت الذى رحل منذ قرن قد عاد ينتصب أمام الأنظار . كل نافذة تتألق بضوء شموع عدة ، وعلى الطريق تندفع عربات أرستقراطية بوسطن ، بينما امتلأ المدخل بسادة المجتمع الراقى .

وسط هذا الزحام اختلطت برغم معرفتى أننى أنتمى للمضيفين لا الضيوف . داخل قاعة البيت كانت موسيقا وضحك وخمر فى كل يد . عرفت بعض الوجوه برغم أننى أعرفها أكثر وقد أبلأها الموت . كنت أنا الأكثر جنوناً والأكثر عزلة .. مرح مجنون راح ينصب فى عروقى ..

فجأة دوى الرعد ... أعلى من صوت العربة ذاتها .. ضرب السطح وألقى بالذعر فى قلوب الجمع الصاخب .

وخرجت السنة حمر من اللهب وهبات حارة من النار لتلتهم البيت واندلعت الصرخات .. وهرب الجميع ليغييوا فى الظلام . أنا وحدى بقيت .. مقيداً لمقعدى بخوف لا فرار منه ..

ثم استولى رعب جديد على عقلى .. لو احترقت وصرت رمداً فلن أرقد أبداً فى قبر آل (هايد) .. أليس تابوتى معداً لى ؟ .. أليس من

حقى أن أستريح بين سلالة سير (جيفرى هايد) ؟ .. إن اسمى هو (جيرفاس هايد) ولسوف أطلب بحقى فى الدفن هنا ..

عندما غاب شبح البيت المحترق ، وجدت نفسى أصرخ بين ذراعى رجلين أحدهما كان الجاسوس الذى تبغى للقبر .. كان المطر ينهمر مدراراً وفى الأفق الجنوبى يلتمع البرق .

كان أبى وقد غمر الأسف وجهه يقف بينما أنا أصرخ مطالباً بحقى فى الدفن هنا ، وكان يطالب من يمسون بى بأن يرفقوا بى قدر استطاعتهم ..

كان هناك حشد من القرويين الفضوليين يحملون المصابيح ويحيطون بصندوق عتيق بدا واضحاً فى ضوء البرق . توقفت عن المقاومة العنيفة وراقبت المشاهدين وهم يفتحون الصندوق . كانت ضربة البرق قد دمرت أقفاله فوجدناه مليئاً بالأوراق وأشياء ثمينة لكننى كنت أبحث عن شيء بعينه . كان تمثالاً صغيراً من الخزف لشاب يلبس جمّة أنيقة ، وعليه الحروف (ج . هـ) .. وعندما رأيت وجهه بدا لى أننى أنظر فى المرأة ..

فى اليوم التالى أحضرونى لهذه الغرفة ذات القضبان على النوافذ ، وأخبرنى خادم بسيط عجوز كنت أحبه فى طفولتى بأشياء معينة . أما ما جرؤت على أن أحكيه عن تجاربى فى القبر فقد جلب ابتسامات الشفقة لا أكثر .

قال أبى الذى يزورنى بانتظام إننى لم أجتز الجنزير على الباب قط ، وأقسم أن القفل الصدى لم يمس منذ خمسين عامًا . قال إن الفلاحين يعرفون بأمر رحلتى للمقبرة وقد رأى كثيرون نائمًا فى التكهية ..

لم يكن عندى ما يقال هنا لأن مفتاحى قد فقد فى صراع الليل . وقد أصر أبى على أن ما عرفته فى تلك اللقاءات الليلية ليس سوى ثمار قراءتى فى مكتبة أسرتنا .

لولا خادمى العجوز حيرام لاقتنعت كلية بأننى مجنون ، لكن حيرام المخلص للنهاية كان يثق بى وفعل الشئ الذى جعلنى أكتب هذه القصة للملا ..

منذ أسبوع فتح القفل الذى يغلق المقبرة ونزل بمصباح إلى تلك الأعماق ، وعلى لوح حجرى وجد تابوتًا مفتوحًا خاليًا عليه كلمة (جيرفاس) .

فى هذا التابوت وفى هذا القبو سوف أدفن كما وعدونى بالضبط ..

حقائق تتعلق بالفقيد

أرثر جرمين وأسرته (*)

(*) اضطرت مجلة (حكايات غريبة) لتغيير هذا الاسم الطويل إلى (القرد الأبيض) ، لما أثار غيظ لافكرافت .. لم يعد الاسم الأصلى إلا بعد أعوام من وفاته .

- 1 -

إن الحياة شيء مروع ، فمن خلف العوالم التى نعرفها تطل لمحات شيطانية من الحقيقة التى تجعلها أكثر ترويعاً ألف مرة ..

لربما لو عرفنا من نحن ، لفعلنا كما فعل سير (آرثر جيرمين) الذى أغرق نفسه بالبترول ، وأشعل النار فى ثيابه ذات ليلة . لم يضع أحد البقايا المتفحمة فى إناء أو خلد ذكراه ، لأن بعض الأوراق التى تركها جعلت الناس يفضلون أن ينسوه .. بعض من عرفوه ينكرون أنه وجد أصلاً .

أحرق (جيرمين) نفسه بعد ما رأى الشيء فى الصندوق الذى جاء من أفريقيا ، وكان هذا الشيء وليس مظهره الشخصى هو ما جعله ينهى حياته . فكلون كانوا سيرغبون فى الحياة لو كانت لهم ملامح (آرثر جيرمين) ، لكنه كان شاعراً ومثقفاً ولم يكن يبالى بمظهره .

كان العلم فى دمه لأن جده الكبير سير روبرت جيرمين كان عالم أنثروبولوجى مرموقاً بينما جد جده سير (ويد جيرمين) كان من مكتشفى الكونغو الأوائل وكتب الكثير عن قبائلها . وكانت له نظريات غريبة عن سكان الكونغو بيض البشرة من قبل التاريخ مما جعل الكثيرين يسخرون من كتابه .. وفى العام 1765 وضعوا هذا المستكشف الشجاع فى مستشفى أمراض عقلية .

كان الجنون موجوداً فى سلالة (جيرمين) كلها وقد سر الناس لأنه ليس هناك كثيرون منهم . كان آرثر هو الأخير ، ولم يكن مظهرهم مريخاً .. ثمة شيء خطأ فى ملامحهم لكن آرثر كان أسوأهم ..

من الواضح أن الجنون بدأ مع سير (ويد) لأن ملامح من سبقوه من أجداد كانت وسيمة رقيقة . كما أن مجموعته من التذكارات ليست مما يمكن أن يجمعه رجل طبيعى . كانت زوجته ابنة تاجر برتغالى قابله فى أفريقيا ولم يكن يحب الحياة البريطانية . رافقته مع رضيعها الذى ولد فى أفريقيا فى رحلته الثالثة والرابعة لكنها لم تعد قط . كانت تقيم منفردة فى جناح خاص فى دار (جيرمين) ولم يكن يخدمها سوى زوجها نفسه . يبدو أن الرجل كان متحفظاً بصدد أسرته لأنه إذ عاد لأفريقيا لم يترك أحداً يعنى بابنه سوى امرأة سوداء عجوز قبيحة من غينيا .

لكن كان كلام سير (ويد) هو ما أقنع أصحابه بأنه مجنون .. فى عصر العقل الذى هو القرن الثامن عشر ، كان من الحمق أن يتكلم المرء عن رؤى مجنونة ومشاهد غريبة تحت قمر الكونغو . عن أعمدة مدينة منسية غطتها الأشجار وعن درجات تقود لأقبية مظلمة . عن مخلوقات غريبة تعيش هناك .. مخلوقات ظلت حية بعد ما دمرت القردة العظمى المدينة ..

بعد عودته آخر مرة راح سير (ويد) يتكلم عن هذه الأمور بحماس مجنون خاصة بعد الكأس الثالثة فى حانة (رأس الفارس) ويحكى عن معيشتة فى الغابة فى أماكن لا يعرفها سواه . فى النهاية وجد نفسه فى مستشفى المجانين . لم يبد ندمًا ..

كان ابنه قد كبر وبدأ يمقت بيته ، حتى جاءت اللحظة التى بدأ يخافه فيها .. وعاش فى حانة (رأس الفارس) بالكامل ، وبعد ثلاثة أعوام مات .

برغم أن (فيليب) حفيد (ويد جيرمين) كان يشبه جده إلا أن منظره وطباعه كانت للفظاظاة أقرب لدرجة أن الناس اجتنبوه . لم يرث الجنون لكن غبائه كان مطبقًا وأحيانًا كان يغضب غضبات مريعة . كان صغير الحجم لكنه قوى جدًا ..

بعد 12 عامًا من وراثة لقب لورد تزوج ابنة مدير عزبته وهى من أصل غجرى وقبل أن يولد ابنه التحق بالبحرية كبشار عادى . وإذ دنت الحرب الأمريكية من نهايتها عرف الناس أنه بحار على سفينة تجارية عند سواحل أفريقيا ، واختفى ذات ليلة عندما رست سفينته على ساحل الكونغو .

بدأت تلك الخاصية الأسرية الغربية تظهر بشكل مختلف مع ابن سير (فيليب جيرمين) . كان فارع القامة وسميًا فيه شيء

من المهابة الشرقية الغربية . بدأ (روبرت جرمين) حياته كدارس وباحث وكان أول من درس التركة الغربية التى تركها جده ..

عام 1815 تزوج فتاة من أسرة الفيسكونت (برايت هولم) ورزق بثلاثة أطفال لم ير أحد أكبرهم ولا أصغرهم علنًا بسبب تشوه عقلى وجسدى . حزينًا راح العالم يبحث عن الراحة فى العمل وقام برحلتين فى أفريقيا .. فى العام 1849 فر ابنه (نيفل) وهو فتى متمرد يجمع بين فظاظه جيرمين وعجرفة آل برايت هولم مع راقصة سوقية . لما عاد فى العام التالى تلقى الصفع .. لقد عاد أرمل ومعه ابن هو (ألفريد) الذى سيصير والد (أرثر جيرمين) يومًا ما .

قال الناس إن هذه المصائب هى التى أطارت عقل (روبرت جرمين) ، لكن ربما كانت بعض الأساطير الأفريقية هى سبب الكارثة . كان الباحث يجمع أساطير قبائل أونجا قرب مناطق بحث جده ، وهو يأمل أن يجد ما يثبت كلام جده عن مدينة مفقودة تعيش فيها كائنات عجيبة .

فى أكتوبر عام 1852 زار المستكشف (صمويل سيتون) منزل جيرمين ومعه أوراق جمعها من الأوجا .. كانت هناك خرافات عن مدينة رمادية تعيش بها قردة بيضاء ويحكمها إله أبيض . يبدو أنه ذكر بعض التفاصيل التى لن نعرفها أبدًا .. لكن كوارث مرعبة بدأت تحدث ...

حينما غادر سير (روبرت جيرمين) المكتب ترك خلفه المستكشف مخنوقاً ، وقبل أن يقبض عليه أنهى بنفسه حياة أولاده الثلاثة . مات (نيفل) وهو يحاول حماية ابنه (ألفريد) ذى العامين ، ونجح فى ذلك ...

حاول سير (روبرت) الانتحار عدة مرات ، وأصر بعناد على ألا ينطق كلمة ذات معنى ، ثم مات بعد عام بتزف مخى فى سجنه .

صار سير ألفريد باروناً عندما بلغ الرابعة من العمر ، لكن ميوله لم تكن جديرة بهذا اللقب . فى سن العشرين التحق بفرقة عازفين ، وفى سن السادسة والثلاثين هجر أسرته وسافر مع سيرك جوال . كانت نهايته بشعة لأنه بين الحيوانات التى كانت معه كانت غوريلا ضخمة فاتحة اللون افتنن بها وكانت شهرتها عظيمة فى السيرك . فى النهاية طلب أن يسمحوا له بتدريب الحيوان وقد أدهش المشاهدين وزملاءه بنجاحه .

ذات صباح فى شيكاغو كان يجرى بروفة معها على مباراة ملاكمة بارعة ، وجهت له لكمة أقوى من المعتاد فأذت جسده وكرامته . أما ما حدث بعد هذا فيفضل عاملو السيرك ألا يحكوه . لم يتوقعوا أن يسمعوا الرجل يطلق صرخة غير بشرية .. يمسك خصمه بيديه ويوقعه على أرض القفص وينشب أسنانه فى حلقه . سقطت الغوريلا لكن ليس طويلاً .. وقبل أن يعمل أحد أى شىء كان جسد المدرب قد صار عجينا .

- 2 -

كان آرثر جيرمين هو ابن ألفريد جيرمين .. وكان مطرباً فى المسرح . عندما فر الأب أخذت الأم طفلها إلى منزل (جيرمين) حيث لم يعد هناك من يعترض على وجودها ..

قررت أن تربي ابنها تربية قديمة على قدر ما يسمح به ما معها من مال . كانت موارد الأسرة محدودة تماماً الآن ، لكن آرثر الصغير أحب البيت وما فيه . كان يختلف عن أسلافه فى أنه كان شاعراً وحالماً . وقال الجيران الذين سمعوا عن زوجة (ويد جيرمين) إن دمها البرتغالى قد أفصح عن نفسه فى هذا الفتى . لكن كثيرين سخروا من حبه للجمال وقالوا إن السبب هو أمه التى كانت مجهولة فى المجتمع .

كانت شاعريته أكثر وضوحاً بسبب مظهره .. لقد كان معظم آل (جرمين) لهم مظهر منفر لكن وجه (آرثر) كان صادمًا ... من الصعب أن تصف كيف يبدو ، كما أن طول ذراعيه كان يثير نفور من يقابله لأول مرة .

كان موهوباً فنال أعلى الدرجات فى أكسفورد وبدأ أنه جدير بسمعة أسرته .. برغم أنه كان شاعراً أكثر منه عالماً فإنه قرر أن يواصل عمل أجداده . وكان يشعر بمزيج غريب من رهبة وشغف كلما سمع عما وجدده جده .

عام 1911 بعد موت أمه قرر سير (أرثر جيرمين) أن يستكمل أبحاثه . باع جزءاً من ضيعته للحصول على المال ورتب حملة إلى الكونغو . رتب مع السلطات البلجيكية طلباً لأدلة وأمضى عاماً في بلاد الأونجا ووجد معلومات مهمة جداً .

بين قبائل الكاليريس كان هناك زعيم شيخ يدعى (موانو) لم يحظ فقط بذاكرة قوية ، بل درجة عالية من الذكاء والاهتمام بالأساطير القديمة . وقد أكد له صحة كل أسطورة سمعها .. أكد له وجود المدينة الحجرية والقردة .

حسب كلام موانو قد زالت المدينة والقردة فقد دمرها النباتجوس منذ أعوام . وبعد هذا الغزو حمل أفراد القبيلة معبودة المدينة المحنطة التي كانت هدف غزوتهم . تلك المعبودة هي القردة البيضاء التي عيبتها مسوخ المدينة والتي كانت أميرتهم يوماً ما .

لم يعرف موانو كنه تلك القردة البيضاء لكنه يعتقد أنهم بناء المدينة العتيقة ..

الأميرة القردة كانت زوجة إله أبيض كبير جاء من الغرب . حكما المدينة لفترة طويلة لكن عندما رزقا بابن رحل ثلاثتهم . فيما بعد عاد الإله والأميرة .. ثم ماتت الأخيرة فقام زوجها بتحنيطها ووضع مومياءها في بيت حجرى كبير حيث كان يُعبد . ثم رحل وحده .

هنا توجد ثلاث تكملات للأسطورة ..

الأولى تقول إن شيئاً لم يحدث بعد هذا سوى أن المومياء صارت رمزاً لرفعة وقوة كل قبيلة تملكها . لهذا اختطفها أفراد قبيلة النباتجوس .

القصة الثانية تحكى عن عودة الأبيض والموت عند قدمى زوجته . القصة الثالثة تحكى عن عودة الابن الذى صار رجلاً لكنه لا يعرف حقيقته ..

صار (أرثر) على يقين من قصة المدينة كما حكاها أبوه .. لقد وجد بقاياها وقدر أن الأساطير بالغت فى وصف مساحتها ، لكن ما تبقى من حجارة يدل على أنها لم تكن مجرد قرية أفريقية .. لم يجد نقوشاً أو كتابة وكان صغر حجم الحملة لا يسمح بعمل حفريات . تكلم مع كل زعماء المنطقة عن القردة البيض والربة المحنطة ، لكن وقع على عاتق أوروبى أن يفسر المعلومات أكثر . كان هناك (فيرهيرن) وهو عميل بلجيكى لإحدى الشركات التجارية فى الكونغو ، وكان يعتقد أنه ليس قادراً على العثور على المومياء فحسب بل الحصول عليها كذلك .

إن قبائل النباتجوس القوية لم تعد سوى رعايا حكومة الملك ألبرت ، ويمكن إقناعهم بالتخلي عن معبودتهم هذه . لهذا عندما عاد أرثر جيرمين إلى إنجلترا كان مؤمناً أنه على عتبة كشف عرقى مهم لا يقيم بمال .

كان الريفيون قرب دار (جيرمين) يعرفون قصصًا غريبة من التي حكاها سير (ويد) قديمًا في حانة (رأس الفارس) ، وقد قضى (أرثر) وقته يسمع هذه القصص وينتظر ذلك الصندوق الذي سيُشحنه له (فيرهين) من الكونغو ..

راح يقترب أكثر فأكثر من حياة جده المجنون سير (ويد) وراح يسمع المزيد . كانت زوجة الرجل متوارية أكثر الوقت كما عرف ، وقد تساءل عن سبب هذه العزلة ثم قدر أن السبب هو جنون سير (ويد) . لابد أن المرأة التي كانت ابنة تاجر برتغالي كانت تعرف معلومات سطحية عن قلب أفريقيا ، وهذا جعلها تسخر من كلام سير (ويد) مما جعل الرجل عاجزًا عن أن يغفر لها . لا جدوى من هذه الاستنتاجات بعد قرن ونصف من موت جده وزوجته .

في يونيو 1913 وصل خطاب من (فيرهين) يقول إنه وجد المومياء .

قال البلجيكي إنه كشف خارق للعادة .. كشف لا يستطيع رجل الشارع أن يصفه .. ليس بوسع أحد أن يعرف إن كان هذا قردًا أم بشرا إلا من كان عالمًا ، وعملية الفحص ذاتها ستكون عسيرة بسبب حالة المومياء المتدهورة .

إن الزمن ومناخ الكونغو ليسا مما يرفق بالمومياءات .. خاصة لو كان تحنيطها عمل هواة كما هو الحال هنا . حول عنق

المخلوق هناك سلسلة ذهبية عليها نقوش شعار نبالة ، ومن الواضح أنها كانت تخص رحالة تعصا أخذها منه النباتجوس وعلقوها حول عنق المومياء .

سوف تصل المومياء بعد شهر من تلقى الخطاب . ووصل الشيء في الصندوق إلى دار جيرمين عصر يوم 3 أغسطس حيث نقلت للغرفة التي حفظت فيها الآثار الأفريقية .

ما حدث بعد هذا يمكن معرفته من حكايات الخدم والأوراق التي وجدوها .

من ضمن القصص هناك قصة كبير الخدم العجوز (سومس) وهي أفضلها وأكثرها تماسكًا . حسب قصة هذا الرجل الموثوق فيه ، فقد انفرد سير (أرثر) بالمومياء قبل فتح الصندوق وإن كان صوت الإزميل والمطرقة قد أوضح أنه لم يتأخر . لم يسمعوا شيئًا لفترة ثم سمعوا صرخة مروعة بعد ربع ساعة ..

على الفور خرج جيرمين من الحجرة وجرى لمقدمة البيت كأن عدوًا مخيفًا يطارده ، والتعبير المذعور على وجهه يتحدى الوصف . قرب الباب توقف ثم هرع إلى القبو .

هنا تصاعدت رائحة بترول ورأى السائس السير (أرثر) يندفع خارجًا من البيت وهو يلعب بالبتترول الذي غطاه من رأسه

إلى قدميه ، وهو يجرى ليتوارى في الظلام المحيط بالبيت .
عرف الجميع أنها النهاية .

ظهر وهج بين الأشجار وتعالى النار إلى السماء . أما السبب
الذى لم يرق أحد من أجله بجمع بقايا (أرثر جيرمين) المتفحمة
ولم تدفن ، فيكمن فيما وجدوه بعد ذلك .. خاصة الشيء فى
الصندوق .

إن المومياء المحنطة كانت شنيعة المنظر متحللة ، لكن من
الواضح أنها قرد أبيض مجهول السلالة . كانت أقرب للبشر
بشكل مروع . إن الوصف المفصل لن يسر أحداً لكن هناك أشياء
يجب أن يقال .. وهى تتفق مع الأساطير التى حكاها سير (ويد
جيرمين) .

إن القلادة حول عنق المخلوق كانت تخص آل (جيرمين) ،
والتشابه واضح بين ملامح المومياء وملامح (أرثر جيرمين)
الحساس ، حفيد حفيد سير (ويد جيرمين) الذى تزوج زوجة
مجهولة لم يرها أحد قط .. زوجة زعم أنها ابنة تاجر برتغالى .

قام أعضاء معهد الأجناس الملكى بحرق الشيء وألقوا بالقلادة
فى بئر ، وبعضهم ينكر أن (أرثر جيرمين) كان له وجود على
الإطلاق .

داجون (*)

(*) جزء آخر من عالم لافكرافت الذى يتكرر من قصة لأخرى . عرفنا عقيدة
(داجون) فى قصة (ظل فوق اينزمازث) وهنا نرى ذات العالم من وجهة نظر
أخرى .

أكتب هذه الكلمات تحت ضغط عقلى واضح ، لأننى لن أكون بعد هذه الليلة . أنا مفلس وقد انتهى مخزونى من العقار الذى يجعل الحياة محتملة ، ولم أعد أطيق العذاب .. لذا سوف ألقى بنفسى من نافذة العلية هذه إلى الشارع الحقيقير من تحتى . لا تعتقد أننى منحل أو ضعيف بسبب خضوعى للمورفين ، فلو قرأت هذه الصفحات لأمكنك أن تخمن لماذا أريد النسيان أو الموت .

كان ذلك فى بقعة مهجورة من المحيط الهادى ، عندما سقط قارب الشحن الذى كنت فيه فريسة لهجوم ألمانى . كانت الحرب العظمى فى بدايتها وقوى الألمان لم تهو بعد إلى القاع ، لذا كانت سفينتنا جائزة قيمة ، بينما عوملنا نحن البحارة باحترام كأسرى . كانوا يعطوننا حريات واسعة حتى إننى بعد خمسة أيام من الأسر استطعت الفرار فى قارب صغير ومعى ماء ومؤن تكفينى لفترة طويلة .

عندما وجدت نفسى أخيراً تحت رحمة الرياح لم أملك أية فكرة عن مكاتى . لم أكن ملاحاً بارعاً قط وقدرت فقط أننى جنوب خط الاستواء . لم تكن هناك جزر ولا سواحل على مرمى البصر ، وقد مضيت تحت الشمس الحارقة عدة أيام منتظراً قارباً يمر أو أن يلقى بى على ساحل مسكون . لم يظهر القارب ولا الأرض وبدأت أشعر بالقتوط .

حدث التغير أثناء نومى ولا أذكر التفاصيل لأننى كنت نائماً .. عندما صحت وجدت أننى نصف مغمور فى مستنقع يمتد حولى وقد رسا فيه قاربى .

قد يتوقع المرء أن انطباعى الأول كان الدهشة من هذا المشهد ، لكننى كنت أكثر ذعراً منى مندهشاً لأننى شعرت فى الهواء والماء شيئاً شريراً يفوق الوصف ... ربما كان السبب رائحة الأسماك الميتة النتنة أو أشياء أخرى تبرز من الوحل . لا أعرف كيف أعبر بكلمات .. لا شىء على مدى السمع ولا شىء تراه .. فقط كان السكون مما ملأنى بخوف يثير الغثيان .

كانت الشمس تتوهج فى سماء شبه سوداء مما فيها من سحب ، كأنها تعكس المستنقع تحت قدمى . إذ زحفت أدركت أن نظرية واحدة يمكن أن تفسر وضعى .. ربما حدث تغير بركاتى رفع جزءاً من قاع المحيط للسطح كاشفاً عن أراض ظل الماء يغمرها منذ ملايين السنين . هذه الأرض كانت تمتد بعيداً ولم تكن هناك طيور بحرية تقتات على الأجساد الميتة .

لساعات جلست أفكر جوار القارب الذى كان على جانبه يعكس بعض الظل من الشمس . مع تقدم النهار فقدت الأرض بعض لزوجتها وبدأ أنها تسمح بالمشى فوقها بعض الوقت . نمت

ليلتها قليلاً وفي الصباح حملت ما بقى معى من طعام وماء .
واستعددت للبحث عن عون .

كانت رائحة السمك تثير الجنون لكن كان لدى ما يشغلنى عن
هذا ، وقد أمضيت اليوم كله أمشى غرباً مستهدياً بربوة أعلى
مما حولها وفي الليل كنت أنام .

أمضيت أربعة ليال وصلت لقاعدة تلك الرابية التى اتضح أنها
أعلى بكثير مما خيل لى من بعيد . كنت مرهقاً بحيث لم أستطع
التسلق فنمت جوارها .

لا أعرف لماذا كانت أحلامى متوحشة فى تلك الليلة ، وصحوت
مبللاً بعرق بارد وقد نويت ألا أنام أكثر . وفى ضوء القمر أدركت
أنى كنت أحمق إذ فضلت المشى نهاراً .. لو مشيت ليلاً لاحتاجت
رحلتى إلى طاقة أقل .. لقد صار بوسعى أن أتسلق الآن ..

يجب أن أعترف أننى عندما بلغت القمة ونظرت للوady تحتى ،
أصبت بالذعر .. مساحات لا نهاية لها من الظلام كأننى بلغت نهاية
العالم فعلاً .. وتذكرت مقاطع من (الفردوس المفقود) .

فجأة رأيت على المنحدر المقابل شيئاً متسعاً يرتفع مائة ياردة
أمامى . جسم يلتصق فى ضوء القمر .. كان قطعة صخر عملاقة
لكنى قدرت أن شكلها ليس من عمل الطبيعة . بل هى تحمل
لمسات كائنات تشعر وتفكر .

شعرت برعب لكن هذا لم يمنع شعورى بنوع من بهجة
المكتشفين ، وتفحصت ما حولى . كان القمر قرب السميت يسطع
فوق الدرجات المصنوعة فى الصدع ، وقد بدأ يكشف تلك
الظلمات . كانت هناك مياه وكان هناك نصب حجرى عملاق
يمكننى أن أرى بعض النقوش على سطحه .. نقوش هيروغليفية
لا أعرف كنهها .. لكن فيها رموزاً بحرية كثيرة مثل الأسماك
والضفادع .. هناك كائنات لم أرها من قبل لكنى ميزت شكلها
وسط المستنقع .

كانت هناك رسوم تمثل رجالاً لكنهم أقرب للأسماك التى تسبح
فى غار بحرى . لا أستطيع وصف الوجوه أن هذا يجعلنى أوشك
على فقدان الوعي . هم أقرب للبشر فى شكلهم العام لكن أيديهم
وأرجلهم ذوات أغشية ولهم عيون واسعة ..

قدرت أنها معبودات وثنية قديمة لقبيلة صيادين .. قبيلة
اندثرت قبل أن يظهر إنسان نياندرثال أو بليتون .. ووقفت
شاعراً بالرهبة أمام هذه النقوش التى تثير حيرة أى عالم
أنثروبولوجى .

فجأة رأيته ..

بصوت خافت وهو يرتفع للسطح اندفع الشيء فوق المياه السوداء . كان ضخماً كريهاً له مظهر السيكلوب واندفع كوحوش الكوابيس نحو النصب الحجري وأحاطه بأنرعه العملاقة القشرية .. ثم خرج من رأسه صوت غريب ..

أعتقد أنني جنتت وقتها ..

لا أذكر كيف تسلقت المنحدر ثائية ولا كيف جريت محمومًا نحو القارب .. أذكر أنني غنيت كثيراً وضحكت عندما عجزت حنجرتي عن الغناء . أذكر عاصفة هائلة وصوت رعد وأصواتاً لا تبعثها الطبيعة إلا في أسوأ مزاج لها .

أفقت من الظلال في مستشفى في سان فرانسيسكو ، وعرفت أن قبطان السفينة الأمريكية الذي وجدني وسط المحيط هو من جلبني هنا . لقد تكلمت كثيراً أثناء الهلوسة لكن أحداً لم يبال بما قلت . لم يسمع منقذى عن أى انقلاب أرضى في المحيط أثناء رحلتى . ولم أر نفعا من قص قصة لن يصدقوها .

في الليل عندما يشحب القمر ، أرى الشيء .. جربت المورفين لكنه لم يعطيني سوى راحة مؤقتة وجعلني في قبضته كعبد بلا خلاص . لهذا قررت أن أنهى كل شيء .. فقط كتبت تقريراً كاملاً ليتسلى به الناس ..

أحياناً أتساءل إن لم يكن هذا كله خيالاً؟ .. مجرد هلاوس نتيجة الظمأ والشمس وأنا في القارب بعد فرارى من الألمان؟ .. لا أستطيع أن أفكر في البحر إلا وتخيلت الأشياء المخيفة الكامنة في الأعماق تزحف وسط الوحل ، تعبد أصنامها العتيقة وترسم أشباهها على النصب الحجرية .

أحلم بيوم ينهضون فيه من تحت الأمواج ليقضوا على جنس البشر الذي أهلكته الحروب . عندما تنكمش الأرض ويرتفع قاع المحيط ..

النهاية قريبة .. أسمع صخباً على الباب .. كأن جسداً زلقاً هناك ..

لن يجدنى ..

إلى النافذة! ... إلى النافذة!!

- 1 -

الغموض يجذب الغموض .. منذ اشتهر اسمى كمؤد للحركات الخارقة ، قابلت قصصاً وأحداثاً غريبة اعتقد الناس أنها تتوافق مع اهتمامى . بعضها كان تافهاً وبعضها كان درامياً شديد التأثير . بعضها أكسبني خبرات غريبة ، وبعضها جعلنى أدخل فى بحث تاريخى مدقق . أحكى عن هذه القصص لكن هناك قصة أشعر نحوها بنفور عظيم ، لكنى أحكيها الآن تحت إغراء شديد من ناشر هذه المجلة الذى سمع كلاماً غامضاً عنها من أفراد أسرته .

القصة تتعلق بزيارة غير مهنية قمت بها لمصر منذ 14 سنة . لست راغباً فى نشر الحقائق التى يجهلها السياح الذين يزورون مصر وتخفيها الحكومة المصرية بعناية ، برغم أنها تعرفها بالطبع . أضف لهذا أننى غير راغب فى سرد قصة لعب فيها خيالى دوراً عظيماً . ما رأيته أو حسبت أننى رأيته لم يحدث بالتأكيد . وربما هو نتيجة قراءاتى فى علم المصريات لو أضفنا لها إثارة حادث معين رهيب فى حد ذاته فلسوف نفهم تلك الليلة المفزعة التى مضى عليها وقت طويل .

فى يناير عام 1910 أنهيت ارتباطاً فى إنجلترا ووقعت عقداً لجولة فى مسارح أستراليا . كان هناك وقت وافر أمامى لذا

سجين مع الفراشة (*)

(*) كتبها خصيصاً تحية لصديقه المشعوز (هودينى) أبرع المختصين فى فنون الهرب من القيود عبر التاريخ .

قررت أن أنتفع به فى السفر ، وقد اصطحبت زوجتى إلى مارسيليا لنركب السفينة مالوا المتجهة إلى بورسعيد . وقررت أن أزور أهم آثار الصعيد قبل أن أتجه إلى أستراليا .

كنت مصمماً على أن أبقي شخصيتى سرّاً ، لكننى تخليت عن هذا عندما قابلت زميلاً ساحراً أصر على أن يبهر المسافرين بألعابه مما جعلنى لا أقاوم الرغبة فى تأدية حركاته بشكل أفضل . كان على أن أتوقع ما سيحدث نتيجة هذا التصرف . وقد حرمنى هذا وزوجتى متعة أن نمضى رحلة هادئة فى مصر . لقد صرت أنا نفسى أثراً غريباً يقف بينما يشاهده الناس !

جئنا لمصر لنرى الغموض والجمال ، عندما رست السفينة فى بورسعيد وركبنا قوارب صغيرة للشط ، لم نر سوى مدينة صغيرة شبه أوروبية لا غريب فيها سوى تمثال (دى لسيبس) ، لهذا قررنا السفر إلى القاهرة سريعاً لنرى الأهرام ومنها إلى الإسكندرية لنركب إلى أستراليا .

كانت رحلة القطار مريحة ، واستغرقت أربع ساعات بالضبط .. أخيراً وصلنا إلى القاهرة . لكن خيبة الأمل لم تفارقنا لأن كل ما نراه كان أقرب إلى أوروبا ما عدا ثياب الناس .. هناك ميدان يعج بالسيارات والعربات . اتجهنا لفندق (شبيرد) عبر شوارع حسنة التصميم حيث بدت لنا أسرار الشرق وسحره أشياء بعيدة جداً .

لكن اليوم التالى أخذنا إلى قلب ألف ليلة وليلة وبدأ لنا كان بغداد (هارون الرشيد) تحيا ثانية . اتجهنا شرقاً مارين بحدائق الأزيكية ثم الموسيقى وسرعان ما صرنا فى يد دليل سياحى لم يمر بالتطور الحديث ، لذا كان سيداً لحرفته .

لم أعرف إلا متأخراً أنه كان على أن أطلب من الفندق دليلاً مرخصاً ، لكن هذا الدليل كان رجلاً حليق الوجه عميق الصوت يبدو كالفرعنة ويطلق على نفسه (الرئيس عبد الله الترجمان) وكان من الواضح أن له قوة ونفوذاً على رفاقه ، لكن الشرطة فيما بعد قالت إنها لا تعرفه ، وإن لفظة (الرئيس) تطلق على أى شخص ذى سلطة .

أرانا عبد الله غرائب كنا نقرأ عنها فقط فيما مضى ، وكانت القاهرة القديمة نفسها حلماً وكتاب تاريخ .. أزقة من حوار ضيقة تفوح بعطر غامض بين الشرفات الأرابيسك التى توشك على أن تتلامس فوق الشوارع المرصوفة بالحجارة . مع (كاليدوسكوب) من الأنواب والأحجية والعمائم والطرابيش ، مع صوت المؤذنين فوق المآذن على خلفية من سماء زرقاء لا تتغير .

لكننا أبقينا ذروة المتعة للمتحف المصرى حيث السحر المظلم لمصر الفرعونية . أخذنا عبد الله لشارع محمد على حيث مسجد السلطان حسن وحيث الدرجات التى تقود للقلعة التى بناها صلاح الدين نفسه بحجارة من الأهرام المنسية^(*) .

(*) ليس هذا الوصف أنقى وصف ممكن لمصر ، ولكنه الخلط المعتاد فى ذهن الغربيين ..

عند الغروب صعدنا إلى مسجد محمد على وألقينا من فوق المتاريس نظرة على القاهرة التى بدت قبابها بلون الذهب . الشمس تغرب الآن جالبة الغسق المصرى المثير للقشعريرة ، وأمامها رأينا سلويت أهرام الجيزة ، عندها عرفنا أننا انتهينا من القاهرة الإسلامية وعلينا أن نتذوق أسرار مصر الأقدم . عالم رع وآمون وايزيس وأوزيريس .

فى اليوم التالى ذهبنا إلى الجيزة فعبرنا شارع الهرم ، ومررنا بقرى فقيرة . أربعة قرون كما قال بونابرت تنظر لنا من أعلى . فى النهاية وصلنا ما بين محطة الترولى وفندق مينا هاوس . ابتاع لنا عبد الله تذاكر زيارة الهرم وكان واضح الكفاءة ، فقد أبعد عنا البدو الذين كانوا يترصدون بنا وأحضر لنا جمالاً .. كانت المسافة التى سنقطعها قصيرة ، لكننا لم نندم على إضافة هذه الخبرة الصحراوية المروعة إلى تجاربنا .

إن الأهرام تقع على نجد صخرى عال . الهرم الأكبر يقع قرب الطريق الحديث وقد بناه الملك خوفو نحو 2800 قبل الميلاد ، ثم إلى الجنوب الغربى تجد الهرم الثانى الذى بناه خفرع ويبدو أعلى برغم أنه أصغر . ثم تجد الهرم الأصغر لمنقرع ..

سوف تجد أهراماً أصغر وبقايا فى عدة مواضع .. سوف تجد المصاطب وتشبه مقبرة (بيرنيب) الموجودة فى المتحف المتروبوليتانى فى نيويورك . جوار كل مقبرة معبد جنازى كان الكهنة والأقارب يقدمون فيه الطعام للروح الهائمة (كا) .

هنا كان تمثال خفرع بالحجم الطبيعى من الصخر البركاتى والموجود الآن فى المتحف المصرى .. هو تمثال وقفت أمامه خاشعاً عندما رأيته .. عرفت أن الألمان هم من وجدوه وتمنيت أن أعرف المزيد عن تلك البئر التى قيل إن التمثال وجد فيها مع تماثيل أخرى لقردة بابون .

راح الطريق ينحنى ونحن فوق الجمال ، حتى وجدنا أنفسنا أمام الصحراء . واد من الأهرام الصغيرة خلفها يلتمع النيل شرقاً والصحراء الخالدة غرباً ..

هبطنا نحو أبى الهول وجلسنا صامتين تحت هاتين العينين الرهيبتين اللتين لا تريان .

هنا تعالت صرخات البدو يطالبون السياح بالإسراع فى إنهاء رحلة صعود وهبوط الهرم الأكبر ، وكانوا يعتبرون الوقت الأمثل لهذه الرحلة سبع دقائق .. لكن بعض المشايخ قالوا إنهم قادرون على إنهاء التسلق والنزول فى خمس دقائق لو منحناهم

البقشيش . ومن أبى رواش إلى دهشور جنوباً رأينا هرم سقارة الذى يمثل التحول من المطبة إلى الهرم الحقيقى . لم نستطع دخول الهرم الأكبر لأن البدو ضايقونا بالحاحهم دعك من أننا صرنا مرهقين عاجزين عن هذه الرحلة المنهكة .

فى المساء كان أفراد مجموعتنا منهكين من برنامج اليوم ، لذا مضيت وحدى مع (عبد الله) فى جولة .. فقد أردت أن أرى الأتربة والبازارات فى ضوء الغسق الذى يكسبها سحراً . مشينا إلى سوق النحاسين حيث قابلنا كبيرهم .. لم يحبنا كثيراً ولم يبد سعيداً بدليلي المخلص .. ربما لم يحب صوت (عبد الله) العميق ولربما لم يحب ابتسامة (أبو الهول) الجانبية على شفتى . على كل حال لم يطل الوقت قبل أن يمسك (على عزيز) كما سمعته ينادونه بتلابيب (عبد الله) . وسرعان ما تطور الأمر لشجار متبادل وفقد الرجلان غطائى رأسيهما المقدسين ، وكان الأمر ليتطور إلى أسوأ لولا أن تدخلت لأفصل بينهما .

لم يرحب الرجلان بتدخلى ، لكنهما تباعدا وراح كل منهما يستعيد كرامته ثم اتفقا على تسوية خلافهما باتفاق رهيب .. اتفاق عرفت أنه عادة عريقة فى مصر . سوف يسويان ما بينهما بقبضة اليد على قمة الهرم ، بمجرد أن يغيب آخر ضوء للقمر .

بدا لى الأمر مثيراً .. الصراع فوق هذه القمة التى تطل على صحراء الجيزة فى ضوء القمر . وقد طلبت من عبد الله أن يصحبنى معه فوافق .. وهكذا صاحبتة وهو يجول البلدة فى أحياء أكثرها شمال الأتريكية ، يجمع مجموعة من البطجية الخطرين ليصاحبوه فى قتال الليلة .

بعد التاسعة ركبت مجموعتنا على حمير تحمل أسماء تعلموها من السياح مثل (مورجان) و (مارك توين) وعبرنا ذلك الجسر الذى يحرسه أسدان من البرونز . استغرقت الرحلة ساعتين ونحن وحدنا مع الظلام والماضى .

ظهرت الأهرام فى نهاية الطريق رهيبة تدعو للتوجس .. ألم يدفنوا هنا الملكة نيتوكريس حية إبان الأسرة السادسة ؟ .. سمعت أن العرب يحكون أشياء عن هذه الملكة نيتوكريس ويتحاشون الهرم الثالث ليلاً .. إنها التى كتب عنها (توماس مور) واصفاً إياها بـ (سيدة الهرم) .

برغم أننا كنا مبكرين فقد وجدنا أن (على عزيز) وجماعته سبقونا .. كنا قد تجنبنا المرور قرب مينا هاوس حتى لا يستوقفنا رجال الشرطة . واتجهنا نحو الهرم الأكبر حيث كان البدو ينتظرون ..

دارت المعركة باللكمات وراقبتها . كانت سريعة جداً وبرغم تحفظى على الطريقة فبتنى شعرت بالفخر عندما أعلنوا أن (عبد الله) هو الفائز .

كان الصلح سريعاً بشكل ملفت حتى إننى صرت بصعوبة قادراً على تذكر أن مشاجرة قد وقعت . ومن الغريب أن الاهتمام تحول نحوى أنا .. على قدر فهمى للعربية أدركت إنهم يتكلمون عنى وعن قدراتى الغريبة فى الفرار من أى سجن ، وقد أثار دهشتى أنهم يعرفوننى ، كما شملت رائحة عدوانية ما . وبدأت أفهم أن سحر مصر القديمة لم يبرح البلاد ، وأن ممارسات سحرية عدة ما زالت موجودة ، إنهم يشكون فى ألعاب الحواة .. وخطر لى أن دليلى عميق الصوت (عبد الله) يبدو ككاهن مصرى قديم .

فجأة أدركت أن أفكارى لم تكن غير ذات أساس ، لأنه من دون إنذار واستجابة لإشارة خفية من (عبد الله) هجم على أولئك البدو وقاموا بتقييدى بحبال غلاظ .

قاومت طويلاً لكنى أدركت أن رجلاً وحيداً لا يقدر على الانتصار على عشرين بدويًا قويًا . ربطت يداى خلف ظهرى وثبتت ركبتيّ وربطوا يدي لكاحلى .. ثم وضعوا كمامة خائفة على فمى عصبوا عينى وحملونى على الأكتاف ونزلوا بى من فوق الهرم .

وسمعت (عبد الله) يقول إنهم سيضعون قواى السحرية تحت الاختبار حالاً .. ولسوف أفقد أى غرور اكتسبته من تجاربى فى أوروبا وأمريكا .

إلى أية مسافة حملونى ؟ .. وفى أى اتجاه ؟ .. لا أعرف .. كل الظروف منعتنى من تكوين رأى صائب ، لكن بالتأكيد لم تكن مسافة بعيدة ..

وضعونى على أرض ميزت أنها رمال وليست صخرًا .. ربطوا حبلًا حول صدرى وجرونى إلى فتحة فى الأرض ، وقاموا بإنزالى هناك . رحلت أتخبط لوقت طويل فى الجدران لبئر ضيقة أعتقد أنها مدفن قديم ..

كان رعب التجربة يتزايد مع كل ثانية ، وبدأ لى أننى أقترّب من مركز الأرض ذاته وأنه من الغريب أن يقدر حبل صنعه بشر على أن يتدلى لهذه الأعماق التى لا نهاية لها . إن حاسة الزمن تخدع المرء كثيرًا ، لكنى كنت واعيًا تمامًا حتى تلك اللحظة ولم يضيف خيالى شيئًا لصورة مريعة فى حد ذاتها .

لم يكن هذا سبب إغمائى لأول مرة .. لقد بدا أن معاناتى تتزايد بسرعة ، وظهر هذا واضحًا مع ازدياد سرعة الهبوط .

كانوا يدلون الحبل بسرعة وقد رحت أرتطم بلا رحمة بجوانب
البنر وأنا أهبط بجنون . تمزقت ثيابى وشعرت بالدم ينزف ..
وشممت رائحة رطبة عطنة تختلف عن أية رائحة شممتها فى
حياتى ، فيها أثر خافت لعطور وتوابل قديمة .

ثم جاءت الجائحة العقلية .. كانت مريعة تفوق أى وصف
مرتب . كانت هذه نروة الكوابيس .. فى لحظة كنت أتعذب بناب
ألف وحش فى تلك البنر ، وفى اللحظة التالية كنت أخلق فوق
أجنحة الوطاويط فى الجحيم . أخلق فوق أميال من الفضاء بلا
حدود ، ثم أهبط لفراغ ضار بيعث الغثيان . حمداً لله لأن النسيان
محا هذا الجنون الذى مزق روحى .

لكنى استجمعت قواى وعقلى لأتحمل هذا الرعب الكونى الذى
ينتظرنى .

- 2 -

تدرجياً عدت لحواسى بعد هذا الصراع العجيب فى فضاء
جحيمى . كانت التجربة أليمة بحق وبلا نهاية ، ولم تكن طبيعة
أحلامى واضحة لكنها اضطربت فى خيالى فلم يبق منها سوى
الهيكل العام .

حلمت أننى فى قبضة قدم عملاقة .. قدم صفراء مشعرة ذات
خمسة مخالب تمتد لتشمئنى .. ورأيت نفسى فريسة روح غولية
من سحر النيل القديم .. أرواح وجدت حول النيل قبل أن يوجد
بشر وستبقى بعد رحيلهم .

رأيت مقابر الموتى ومواكب الكهنة عبر ممرات ومتاهات
يصير المرء وسطها ذبابة . ورأيت الشر الخام أسود عديم
الشكل يتبعنى فى الظلمات ليخلق تلك الروح التى تجاسرت أن
تحاكى هذا السحر .

فى عقلى النائم كانت ميلودراما من الشر والمقت .. وسمعت
روح الشر تنادىنى وتهمس بصوت غير مسموع . تهبط بى إلى
قلبها الفرعونى المظلم الرهيب ..

ثم بدأت الرؤى تأخذ شكل وجوه بشرية .. رأيت دليلي (عبد الله) فى ثياب ملك وعلى ملامحه ذات تعبير (أبو الهول) الساخر . وأنا أعرف أن هذه ملامح (خفرع) الذى شيد الهرم الثانى .. ونظرت ليد الطويلة النحيلة التى رأيتها فى تمثال الحجر البركانى فى متحف القاهرة . هذه اليد ! .. أراها الآن على (عبد الله) نفسه .. باردة تعصرنى ..

هنا بدأت أصحو .. أو أبعد نوعاً عن حالة النوم التى كنت فيها .. تذكرت الشجار وقمة الهرم واعتداء البدو .. عرفت الآن أننى راقد على أرض صخرية ندية وقيودى محكمة بشدة . كان البرد شديداً وقد شعرت بتيار هواء بارد يمر بى ..

كانت الجروح والسحجات التى أصابتنى أثناء النزول تؤلمنى بحق ، وكانت أية حركة كفيفة بأن تفعمنى ألماً .

نظرت لأعلى فوجدت أن الحبل الذى نزلت به كان ما زال يتسلق لأعلى ، فلم أدر إن كان البدو ما زالوا ممسكين به أم لا .. وقدرت أنى فى معبد (خفرع) أو كهف لم أراه أثناء جولة الصباح ، وهذا يعنى أن بوسعى الفرار . على أولاً التحرر من قيودى .. لن يكون هذا عسيراً أن خبراء كثيرين جربوا كل حيلة لديهم لكنهم لم ينجحوا فى منعى من الهرب .

كان تفكيرى الرئيس هو هزيمة هؤلاء لذا صممت على أن أتحرك بأسرع ما يمكن .. مع تحاشى أى جذب للحبل قد يفضح محاولتى للتحرر .

لكن تنفيذ هذا كان أصعب من التفكير فيه ، لأن الحبل هوى ليتدلى جوارى ، وفهمت أن البدو قد شعروا بمحاولتى فتركوه يسقط فى البئر ، وهرعوا ينتظروننى عند مدخل المعبد . كان الموقف غير سار لكننى واجهت ما هو أسوأ فى حياتى ولم أهتز .. ولن أهتز الآن .. على أن أتحرك من قيودى ، ثم أفكر فى الهرب من هنا سليماً . لكن الحبل الذى سقط فوقى كان يتكوم أكثر فأكثر بما يفوق الحبل العادى ... كان ثقيلاً جداً يشى بالمسافة الهائلة التى نزلتها .. وبدأت أشعر بأننى أختنق .. ثم الشعور بأننى هبطت كثيراً جداً فلا بد أننى فى موضع قرب قلب الكوكب ..

عندما فقدت الوعى ثانية طاردتنى كوابيس مصر وأسرارها المنسية .. الموتى وتلك المقابر التى كانت بيوتاً أكثر منها مقابر . تذكرت أضرحة مصر القديمة والعقيدة التى كانت وراء بنائها .

لم يكن قدماء المصريين يفكرون إلا فى الموت .. آمنوا ببعث الجسد كما هو وآمنوا بروح تبقى فى النعيم مع أوزيريس ، ثم (الكا)

جوهر الحياة الغامضة التى تتحرك بين العالمين السفلى والعلوى بشكل مفزع . وتحاول الوصول إلى الجسد المحنط وأحياناً تستولى عليه أو على التمثال الخشبي الذى يشبهه ..

منذ آلاف السنين وتلك الأجساد ترقد ناظرة لأعلى بعيون زجاجية بانتظار البعث ، وبانتظار أن تجتمع فيها الكا والروح ليخرج الموتى من دار النوم . ربما يتحدث الناس عن اجتماعات غير مقدسة فى هذه الكهوف والأقبية لا يحضرها سوى كا وهذه الموميאות .

من أفضع الموميאות تلك التى تجمع بين جذوع بشرية وأطراف حيوانية ، والتى زعم الكهنة أنها ناجمة عن اتحاد بين البشر والحيوانات للوصول إلى أشباه آلهة . أما ما حدث لهذه الموميאות فلا نعرف .. لم يجد أى عالم مصريات واحدة منها . يقولون إن خفرع ما زال حياً تحت الأرض وقد تزوج نيتوكريس وهو يحكم الموميאות التى لا هى بشر ولا وحوش .

حلمت بخفرع ومملكته من الموتى .. لهذا أنا مسرور لأننى نسيت أكثر هذه الكوابيس .

عندما أفقت من غيبوبتى لاحظت أن ذلك الحبل الثقيل الذى كان يجثم فوقى ويخنقتى غير موجود .. هناك من رفعه عنى !

أنا وحدى ... لكن مع أى شيء ؟

قبل أن أعذب نفسى بمزيد من الأسئلة ، وقبل أن أفكر فى التحرر من قيودى ، كانت آلام جديدة تمزق ذراعى ورجلى . وأدركت أننى مغطى بالدم بشكل لا يمكن تفسيره بالجروح التى أصابتنى أثناء الهبوط .. الشيء الذى نزع عنى الحبل قد جرحنى وأدمانى بلا رحمة ، ثم توقف بلا تفسير .

رحبت أفك قيودى مستعملاً الفن الذى مارسته مراراً أمام الأضواء والتصفيق . على أن أقف غير مقيد غير مضمد العينين وغير مكتوم الفم فلربما أرى ضوءاً أعرف به أين أنا .

فى النهاية وبعد وقت طويل تحررت ، فوقفت أستنشق الهواء غريب الرائحة . وأدركت أن عضلاتى متصلبة لا تسمح لى بالحركة فوراً .. لذا جلست وفردت جسدى لفترة طويلة ورحبت أفتش عن مصدر ضوء يلمح لى بمكانى .

استعدت قواى لكن عيني لم تريا شيئاً .. لا شيء سوى ظلمة ابنوسية كالتى كنت أراها والعصاية على عيني . نهضت وأدركت أننى قادر على المشى .. كان هناك هواء بارد كريه الرائحة لذا قررت أن هذه أقرب نقطة للمدخل ولمسوف أتخذها مرجعاً لجولتى .

كان معى ثقباب وكشاف صغير ، لكن جيوب ثيابى تم إفراغها من أى شيء ثقيل . مصر ! .. الشرق ! .. هذا الموضع من العالم يحوى الكثير من الرعب والكثير من السحر ..

قررت أن أتبع تيار الهواء الغريب ، فهو سوف يقودنى إلى فتحة من أى نوع . ربما أفضل .. هذا أعرفه .. فمن الواضح أن هذا ليس جزءاً من معبد خفرع الذى يعرفه السياح . ربما هو موضع لم يسمع عنه أى عالم أترى من قبل ، فلا يعرفه سوى الأعراب الذين سجنونى .

هل هى نهايتى ؟ .. ربما كان من الرحمة أن تكون هذه هى لحظائى الأخيرة ..

فقدت وعيى من جديد ... كلما تذكرت تلك الليلة شعرت بنوع من الدعابة فى الأمر لأننى تذكرت الأفلام الميلودرامية التى كانت موضوعة العصر حيث كانت الإغماءات تتتابع .

ربما كانت تلك هلوسة طويلة بدأت بهبوطى فى البئر وانتهت بى فى صحراء الجيزة على الرمال تحت الشمس الحارقة . فيما بعد قال لى رجال الشرطة إن مدخل معبد خفرع كان مفتوحاً وإن هناك صدعاً إلى السطح ما زال موجوداً . من الغريب أن وصفى للدليل لم يساعد أى واحد فى أن يعرف من هو .. الرئيس عبد الله الترجمان الذى يبدو ويبتسم مثل الملك خفرع .

لقد ابتعدت عن قصتى الأصلية ربما لأتجنب هذه النقطة التى اعتبرها هلوسة . عندما أفقت أو خيل لى إننى أفقت ، عرفت أننى

تعثرت فوق درجات حجرية . وكنت الريح الكريهة قوية الآن بشكل شيطانى .. لكننى كنت قد ألفتها . بدأت أزحف وأنا أتحسس الأرض بيدين داميتين . اصطدم رأسى بعمود .. عمود عملاق لدرجة لا توصف مغطى بنقوش هيروغليفية استطاعت يدي أن تميزها .

قابلت عدة أعمدة عملاقة على مسافات متساوية كبيرة وهنا فطنت إلى أننى أسمع صوتاً .. صوتاً ظل يتردد فى لا وعيى فترة طويلة قبل أن تعيه حواسى . ثم فطنت أنها أصوات عديدة .. أصوات تؤدى طقوساً ما لا شك فيها .. دق دف ... ضربات على الهارب ..

شعرت بذعر يفوق أى ذعر عرفتة .. ذعر تجاوز ما هو شخصى ليصير نوعاً من الشفقة على كوكب الأرض الذى يحتضن هذه الأسرار المروعة . الصوت يتعالى كأنهم يقتربون .. ثم بدأت أسمع خطوات هذه الأشياء التى تمشى ..

فليرحمنى الله ! .. إن هذه الأشياء تقترب وصوت خطواتها وزحفها منتظم شحذته آلاف الأعوام من التدريب .. هنا مكان اجتماع المومياوات التى لا روح لها .. ملتقى الحائرين ..

اقتربت الخطوات .. وتواريت خلف عمود حجرى محاولاً إبعاد الرعب عني . الرعب الذى يزحف بمليون قدم نحوى ، ورأيت ضوءاً خافتاً ..

لم أحاول النظر لتلك الأشياء الماشية .. فقط سمعت مفاصلهم التي تحدث صريراً وأنفاسهم التي تعبق بالنترات .. من الرحمة أنهم لم يتكلموا .. لكن رباه !.. مشاعلهم كانت تلقى ظلالاً مجنونة على الأعمدة .. أفراس النهر لا يجب أن تكون لها أذرع بشر أو تحمل مصابيح .. البشر لا يمكن أن تكون لهم رعوس تماسيح !

حاولت أن أبتعد لكن الظلال والأصوات والرائحة الكريهة كانت في كل مكان .. هكذا تذكرت الحيلة التي كنت أرددها لنفسى وأنا طفل : « هذا حلم !.. هذا حلم !.. » .. لكنها لم تجد كثيراً ..

كان على أن أفتح عيني عسائ أتبين فى هذا الضوء شيئاً يدلنى على مكاتى ، لكننى كنت مضطراً لغلقي عيني عندما رأيت شيئاً يتحرك بلا جذع فوق خصره ..

كانت غرغرة الموتى تملأ المكان والهواء صار خاتقاً من لهب المشاعل . وفتحت عيني مرغماً لأرى مشهداً لا يمكن أن تتحمله عين بشرية .. لقد وقفت الأشياء فى اتجاه واحد بينما مشاعلهم تعكس رعوسهم المحنية أو رعوس من كانت لهم رعوس . كانت تتعبد أمام فتحة تتصاعد منها أبخرة كريهة وأدركت أن على جانبها درجات سلم عملاقة ..

كان حجم الفتحة يتناسب مع حجم الأعمدة العملاق .. يمكن لببت عادى أن يغيب فيها تماماً ..

أمام هذه الفتحة كانت تلك المسوخ تلقى بأشياء .. ربما قرابين كما فهمت من حركاتها ..

القائد كان خفرع .. بعبارة أخرى كان مرشدنا (الرئيس عبد الله) وجواره الملكة الحسنة (نيتوكريس) التي أدركت فى لحظة أن نصف وجهها التهمته الفئران .. ثم رأيت ما كانوا يقذفونه فى الفتحة فأغضت عيني ..

لمن يتعبدون ؟ .. أوزيريس أو إيزيس ؟ حورس أم أنوبيس ؟ ..

خطر ببالي الفرار .. القاعة مظلمة والأعمدة عملاقة والكل مستغرق فى الطقوس .. ربما أصل إلى تلك الدرجات وأصعد دون أن يرانى أحد . بدا لى من المسلى أن أحاول الفرار من هذا المكان الذى هو حلم ..

بدأت الزحف على بطنى متجهاً نحو أسفل الدرج الأسير . كان هو الأقرب . من الصعب أن أصف مشاعري أثناء هذا الزحف لكن بوسع المرء أن يتخيل .. كان أسفل الدرج فى الظلال البعيدة يرتفع إلى ما فوق تلك الفتحة . هكذا صرت على مسافة معقولة من الحشد وإن أفزعنى منظره برغم أننى صرت بعيداً .

نجحت في بلوغ الدرجات ورحت أتسلق ملتصقًا بالحائط ..

كانت الدرجات منحدرًا وضخمة كأنها مخصصة لقدمي عملاق وبدا لي الصعود بلا نهاية . خوف أن يرونى وألم جراحي المتجدد جعل هذا التسلق ذكرى أليمة . وكنت قد صممت على ألا ألقى نظرة تحتى حتى لا أرى هذا الجمع المخيف الجيفى الذى يقوم بطقوس مروعة على بعد سبعين قدمًا من تحتى . فجأة تردد صوت هذه الغرغرة . وتصلبت للحظة ثم أدركت أنه نوع من التراتيل وليس بسبب اكتشافى ..

كانت المسوخ تحيى شيئًا تحرك فى الفجوة كى يظفر بما قدموه له . كان شيئًا رخوًا أصفر مشعرًا ذا حركة عصبية . لم يكن له عنق لكن له خمسة رءوس تبرز فى صف من جذع أسطوانى ..

من هذه الرءوس برزت ممسات صلبة غريبة تمسك بالطعام الذى أدخلوه فى الفجوة . أحيانًا كان الشيء يعود للفتحة وكانت حركاته غريبة ، عسية على التفسير لدرجة أننى تصلبت مذهولًا متمنيًا أن يبرز أكثر .

هنا خرج .. نعم خرج ...

إذ رأيته هرعت أتسلق الدرجات ورحت أتسلق عبر مسطحات وسلام لم يرها بشرى من قبل ولا تخضع لمنطق . لابد أن هذا كان حلمًا ..

لابد أنه كان حلمًا وإلا ما وجدنى الفجر أتنفس فوق رمال الجيزة أمام وجه أبى الهول الباسم الساخر .

أبو الهول العظيم !... السؤال الذى سألته لنفسى .. ما الشيء العملاق المخيف الذى نحتوا هذا التمثال ليمثله ؟

ملعون هى تلك الرؤيا التى جعلتنى أرى الرعب الأعظم ... ليكون حلمًا أو لا .. الكائن المروع الذى يقبع فى هوة سحيقة ، يلتهم ما تقدمه له مسوخ بلا روح ما كان يجب أن توجد . المسخ ذو الرءوس الخمسة .. المسخ ذو الرءوس الخمسة العملاق ..

لكنى عشت .. وأؤمن أن ما رأيته كان مجرد حلم .

ه . ب . لا فكرافت



نداء كَتُولُو

(العزيز) و (نيكرونوميكون) و (كتولو) و (آرخام)
و (إينزماوث) .. مفردات عالم لافكرافت كاتب الرعب
الأمريكي الأشهر ، التي يستعملها في كل قصصه تقريباً ..
عشاق أدب الرجل يعرفون معنى هذه الكلمات لدرجة
أنهم يشعرون بتوتر غامض عند سماعها ، والبعض
يشعر بأن لافكرافت هو نفسه شخصية مرهقة حساسة
مريضة من شخصيات قصصه .
اليوم نلبي نداء (كتولو) الرهيب النائم في أعماق
المحيط ونعرف أكثر ...

العدد القادم

لورد جيم



المؤسسة
العربية الحديثة

للتنوير والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الشمع في مصر 400

وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم